



سُورَةُ الضُّحَى

حِينَ يُجِيبُ اللَّهُ عَنْ وَحْشَةِ الْقَلْبِ

رَدَّادُ السَّلَامِ

سُورَةُ الضُّحَى

حين يجيب الله عن وحشة القلب

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

بدايات تأملية

﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: هندسة الضوء والسكون

لماذا افتتحت السورة بالضحى؟ ولماذا لم تُقابل النور بالظلام المتوحش، بل بالليل إذا سكن وغطى الأشياء في هدوء؟ هنا نتأمل أن تعاقب النور والليل ليس تناقضاً في العناية، بل تنويع في طرائقها؛ فالله يرعى عبده في انكشاف النهار، كما يرعاه في سكون الليل.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾: حين يجيب الوحي عن الألم الذي لم يُنطق به لم يقل: ما تركك الله، بل قال: ﴿رَبُّكَ﴾؛ فأدخل الطمأنينة في قلب النفي. والذي ربّاك منذ اليتيم لا يتركك عند الرسالة. وفي الآية فارق دقيق بين تأخر العطاء وانقطاع المحبة؛ فقد يتأخر الوحي، ولا تتأخر العناية.

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾: المستقبل الذي يكذب ضيق اللحظة الحزن يحبس الإنسان داخل اللحظة، أما الوحي فيفتح فيها نافذة على المآل. ليست «الآخرة» هنا تعويضاً مؤجلاً فحسب، بل قانوناً في مسيرة النبي ﷺ: كل مرحلة آتية من أمره خير من سابقتها، حتى ينتهي الخير إلى مقامه الأبدي عند ربه.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾: الوعد الذي تجاوز تحديد العطاء لم تسمِ الآية ما سيعطيه الله؛ لأن العطاء أوسع من أن يُحبس في شيء واحد.

وجعلت غايته الرضا، فكأن الوعد لا ينتهي عند وصول النعمة، بل عند امتلاء القلب بها سكينَةً وطمأنينة.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى...﴾: استدعاء الذاكرة لتثبيت اليقين

حين يضطرب الحاضر، يأخذ القرآن بيد الإنسان إلى ماضيه، ويقول له: فتش في تاريخك عن آثار العناية. إن الذي آواك يوم لم يكن لك أب، وهداك إلى تفاصيل الشرع والوحي بعد أن لم تكن تعلمها، وأغناك بعد العيلة؛ لن يبدأ رعايتك ثم يتركها ناقصة.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ...﴾: حين تتحول السيرة الشخصية إلى مسؤولية أخلاقية

لم يذكره الله باليتيم ليستعيد الألم، بل ليصنع من الألم رحمة. فالجرح الذي تهذب به العناية الإلهية لا يتحول إلى قسوة على الآخرين، وإنما يصير نافذة يرى منها الإنسان أوجاعهم. ومن ذاق الإيواء لا يقهر يتيمًا، ومن عرف الحيرة لا يزجر سائلًا، ومن عاش النعمة لا يكتم أثرها.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: خاتمة الضوء

تبدأ السورة بالضحى في الأفق، وتنتهي بالنعمة على اللسان؛ فكأن الضوء الذي أقسم الله به في أولها ينبغي أن يصير في آخرها شهادةً على فضله. والتحديث بالنعمة ليس مباهاةً بما نملك، بل دلالةً على من أعطى.

وسيكون نفس الكتابة قريبًا من هذا النموذج:

نزلت سورة الضحى على قلبٍ عظيم أثقله انتظار السماء. تأخر الوحي، فوجدت الشائعات طريقها إلى ذلك الصمت، وحاولت أن تفسر سكون السماء

على أنه وداع. غير أن الله لم يرسل إلى نبيه جواباً مجرداً، بل أرسل إليه ضحى كاملاً؛ ملأ الأفق بالنور أولاً، ثم ألقى في قلبه الكلمة التي تمسح وحثّة الانتظار: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

ما أرقّ هذا النفي! لم يقل له: ما ودعك الله، بل قال: ﴿رَبُّكَ﴾؛ لأن المقام ليس مقام إثبات الوجود، وإنما مقام استحضار الرعاية. وكأن المعنى: كيف يودعك من تولى تربيتك؟ كيف يتركك في منتصف الطريق من اصطفاك للطريق كله؟

لقد تأخر الوحي، ولكن المحبة لم تتأخر. وسكنت السماء، ولكن العناية لم تسكن. فالليل حين يسجى لا يعني أن الشمس ماتت؛ وإنما يعني أن للنور موعداً آخر، وأن ما غاب عن العين لم يغيب عن تدبير الله.

وهكذا تعلّم السورة القلب ألا يفسر فترات الصمت الإلهي بوهم الهجر، وألا يظن أن تأخر الجواب دليل على سقوطه من العناية. فربما كان الله في المدة التي حسبها العبد فراغاً، يرتّب له ضحاه القادم.

بهذا الأسلوب نستطيع أخي القاريء أن نجعل السورة قصةً عن القلب حين يخاف أن يكون قد ترك، فيأخذه القرآن من ظلمة الظن إلى يقين الرعاية، ثم من يقين الرعاية إلى أخلاق الرحمة. إنها لا تقول للمحزون فقط: سيأتي الضوء؛ بل تقول له: لقد كنت في عناية الله حتى في اللحظة التي حسبتها ليلاً.

وسيحكم هذا الكتاب خيط مركزي واحد:

إن الله لا يذكر الإنسان بما أنعم عليه ليمنحه طمأنينةً ساكنةً فحسب، بل ليحوّل طمأنينته إلى رحمة؛ فكل عنايةٍ نزلت عليك من السماء ينبغي أن يجد الضعفاء شيئاً من أثرها في يديك.

هذا لن يكون شرحاً تقليدياً ولا مجموعة خواطر متفرقة، بل سرداً تدبرياً متصلاً؛ تتحرك فيه السورة من المشهد الكوني إلى قلب النبي ﷺ، ومن ماضي الرعاية إلى مستقبل الرضا، ومن النعمة الخاصة إلى المسؤولية الإنسانية. وسنبداً في المقدمة بلحظة سكون الوحي، ثم نمضي آيةً آيةً حتى نكتشف أن الضحى ليس وقتاً من النهار وحده، بل صورة العناية حين تعود فتبدد سوء ظن القلب.

المقدمة

سورة نزلت لترتّب على قلب النبوة

لم يكن الصمت طويلاً في حساب الزمن، لكنه كان ثقيلاً في قلب اعتاد أن تتنزل عليه كلمات السماء.

كان الوحي قد فتر عن رسول الله ﷺ مدةً، فانقطع ذلك النور الذي كانت روحه تتلقاه من الملاء الأعلى، وسكنت السماء بعد أن كانت تفتح له أبوابها بالكلام. ولم يكن الوحي عنده خبراً يأتي ثم يمضي، بل كان حياةً تسري في قلبه، ويقيناً يشدّ أزره، وصلةً بالله يحمل بها ثقل الرسالة ويواجه بها عناد العالم. لذلك لم يكن فتوره مجرد توقف في نزول الآيات؛ كان غياباً لما تألفت به الروح، وفراغاً لا يملؤه شيء من الأرض.

وللأعداء حساسيةٌ خاصة تجاه لحظات الصمت؛ إنهم لا يتركونها صمتاً، بل يملؤونها بالتأويل الخبيث. فإذا تأخر النصر قالوا: قد خُذل. وإذا اشتدت المحنة قالوا: قد تُرك. وإذا غابت العلامة لحظةً قالوا: انقطعت العناية. وهكذا أرادت قريش أن تجعل من فتور الوحي دليل هجر، ومن سكون السماء علامة غضب، وأن تدخل إلى قلب النبي ﷺ من الموضع الذي يحبه أكثر: صلته بربه.

فجاءت سورة الضحى.

لم تنزل لتدفع شائعةً عابرةً فحسب، وإنما نزلت لتؤسس في الوعي الإيماني حقيقةً باقية: أن سكون السماء لا يعني انقطاع العناية، وأن تأخر الفرج ليس دليلاً على تبدل المحبة، وأن الله قد يحجب عن عبده أثر لطفه لحظة، لكنه لا يخرج من مداره.

وحين أراد الله أن يبدد تلك الوحشة، لم يبدأ السورة بحديث مباشر عن الألم؛ بل فتح نافذةً في الكون: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

كأن القلب المتعب يحتاج قبل الجواب إلى مشهدٍ يراه، وإلى ضوءٍ ينساب إليه من الأفق قبل أن تنساب إليه الكلمات. أقسم الله بالضحى حين ينتشر نوره، وبالليل حين يسكن ويغشى الوجود؛ ليرى النبي ﷺ في تعاقبهما صورةً لما يجري في حياته: ضوءٌ يجيء، وليلٌ يسجو، والوحي يتنزل، ثم يفتر؛ لكن العالم في الحالين لا يخرج من سلطان الله، وحياة النبي ﷺ في الحالين لا تخرج من عنايته.

فالليل ليس فراغاً من تدبير الله، كما أن فتور الوحي ليس فراغاً من رحمته.

إننا نخطئ كثيراً حين نجعل حضور النعمة وحده دليل العناية، ونحسب غيابها المؤقت علامة الهجر. نطمئن إلى الله حين تشرق أيامنا، ثم نرتاب في الطريق إذا أقبل الليل. كأن الله ربُّ الضحى وحده، وكأن الليالي التي يسجو فيها الحزن خارج مملكة الرحمة! فجاءت السورة لتصحيح هذا الوهم من أول مشهد: الذي خلق الضحى هو الذي أسجى الليل، والذي أرسل الوحي هو الذي قدر فتوره، والحالتان تتحركان داخل حكمة واحدة، وإن أدرك القلب جمال إحداهما وخفيت عليه حكمة الأخرى.

ثم جاء الجواب الذي كان ينتظره القلب: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

وما أرقَّ هذه الآية، وما أشد قوتها!

إنها لا تنفي الترك فحسب، بل تنفيه بكلمة تستحضر تاريخاً كاملاً من التربية: ﴿رَبُّكَ﴾. لم يقل: ما ودعك الله، مع جلالة هذا الاسم، وإنما قال: ﴿رَبُّكَ﴾؛ لأن الربوبية هي الرعاية والتربية والتدبير والإنماء والانتقال بالعبد من حال إلى حال حتى يبلغ ما أُعدَّ له. فكأن الآية تقول: إن الذي ربّاك يتيمًا، وحفظك فتىً، وطهر فطرتك، واختارك نبيًا، وأنزل عليك كتابه، وحملك رسالته؛ لا يمكن أن يتركك في منتصف الطريق.

إن ماضي العناية يكذب وساوس اللحظة.

وهذه إحدى طرائق القرآن العظيمة في مداواة الخوف: لا يناقش الألم داخل اللحظة التي أنشأته فقط، بل يفتح أمام القلب سجلّ حياته كله، ثم يدعوه إلى أن يقرأه من جديد. فالإنسان تحت ضغط الحزن يفقد عدالة النظر إلى تاريخه؛ تختصره الساعة المؤلمة، وتغطي الغيمة العابرة سماءً طويلةً من الإحسان. يأتي القرآن فيعيد ترتيب الذاكرة، ويقول للقلب: لا تحاكم علاقتك بالله من مشهد واحد؛ انظر إلى الطريق كله، وتأمل كم مرة أدركتك العناية قبل أن تعرف كيف تطلبها.

ولهذا لم تكتفِ السورة بنفي التوديع والقلَى، بل أخذت النبي ﷺ في رحلة عبر الأزمنة الثلاثة: ثبتت حاضره بقول الله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، وفتحت مستقبله بقوله: ﴿وَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ٥ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ

فَتَرَضَىٰ ﴿١﴾، ثم أعادته إلى ماضيه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٢﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

إنها إحاطة كاملة بالقلب:

ماضيك يشهد أن الله رعاك، وحاضرك يعلن أنه لم يودعك، ومستقبلك موعود بعطاء يبلغ بك مقام الرضا.

فمن أين تدخل الوحشة إلى قلبٍ أحاطته العناية من جهاته كلها؟

لكن السورة لا تريد أن تصنع طمأنينةً منغلقةً على صاحبها. ليست غايتها أن يمسح الإنسان دموعه ثم يمضي غير عابئ بدموع الآخرين. فالقرآن حين يشفي القلب يفتح به نافذةً للخلق، وحين يذكر الإنسان بنجاته يحمله مسؤولية من لم ينجوا بعد، وحين يضع النعمة في وعيه يريد أن يرى أثرها في خلقه.

لذلك انتقلت السورة من بيان العناية إلى تكليف الرحمة:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٤﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿٥﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وهنا يبلغ بناؤها ذروةً أخلاقيةً مدهشة: كنت يتيمًا فأواك، فلا تجعل قوتك الجديدة تنسى ضعفك القديم. وعرفت الحاجة، فلا تجعل الغنى يقسو بك على السائل. وتوالت عليك النعم، فلا تنسب الطريق إلى نفسك، بل اجعل لسانك شاهدًا على فضل ربك.

فالذاكرة في القرآن ليست مستودعًا للآلام، بل مدرسة للأخلاق. والذي يتذكر ضعفه حقًا لا يحتقر ضعيفًا، والذي يعرف كيف آواه الله لا يقهر يتيمًا، والذي

استشعر لطف الهداية لا ينهر حائرًا، والذي أبصر يد الله في حياته لا يتحدث عن نفسه كما لو أنه صنع نجاته وحده.

وبذلك تتحول السورة من المواساة إلى صناعة الإنسان.

إنها تبدأ بقلب يخشى الهجر، وتنتهي بيد تمتنع عن القهر. تبدأ بوحشة النبي ﷺ من فتور الوحي، وتنتهي بأمن اليتيم وكرامة السائل. وكأن الطمأنينة لا تكتمل حتى تصبح أمانًا لغير صاحبها، وكأن أعظم برهان على أنك فهمت عناية الله بك أن يجد المستضعفون شيئًا من أثرها في معاملتك لهم.

وسورة الضحى، على قصرها، ليست سورة للحزن وحده، كما أنها ليست وعدًا سهلًا بأن كل ألم سيزول سريعًا، وكل ليل سيعقبه في الدنيا صباح قريب. إنها أعمق من ذلك؛ إنها تعيد بناء نظرة المؤمن إلى العناية الإلهية نفسها. تعلّمه أن يفرّق بين تأخر العطاء وانقطاع الود، وبين خفاء الحكمة وغيابها، وبين الليل بوصفه مرحلةً والليل بوصفه مصيرًا. فالليل في السورة يسجو؛ يسكن ويتمدد، لكنه لا يملك الأفق إلى الأبد. والضحى حاضرٌ في نظام الكون، وإن لم يره المحزون بعد.

وهي لا تطلب من المتألم أن ينكر ألمه، ولا تعاتبه على الوحشة التي يجدها في نفسه؛ فقد نزلت تطيبًا لأشرف القلوب وأقواها يقينًا. وبذلك تمنح الحزن حقه الإنساني من غير أن تمنحه سلطة تفسير الوجود. من حق القلب أن يتألم، لكن ليس من حق الألم أن يخبره بأن الله قد تركه. ومن حق العين أن ترى الليل، لكن ليس لها أن تنكر الشمس لأنها غابت عنها ساعات.

وسنحاول في هذا الكتاب أن نقرب من السورة على هذا النحو: نبدأ بدلالات ألفاظها وسياقها ونظمها، ثم نصغي إلى ما تفتحه في النفس من معانٍ، من غير أن نفصل التأمل عن أصل التفسير، أو نحمل الآيات خواطر لا يدل عليها بناؤها. لن نتعامل معها آياتٍ متفرقة، بل حركةً واحدةً تبدأ من ضحى الكون، وتعبّر ليل القلب، وتستدعي تاريخ العناية، ثم تنتهي إلى الرحمة بالإنسان.

ففي السورة هندسةٌ دقيقة:

قسمٌ بمشهودين كونييين، يعقبه نفيان يبددان الخوف، ثم وعدان يفتحان المستقبل، ثم ثلاث نعم تستخرج شواهد الماضي، ثم ثلاثة تكاليف تحول النعمة إلى سلوك.

وكأن بناءها يقول: حين يختل تفسيرك للحاضر، فانظر إلى نظام الكون، واستمع إلى وعد الله، واستدع شواهد الماضي، ثم قم من حزنك لتصنع رحمةً في حياة غيرك.

إن سورة الضحى لا تعد الإنسان بأن أيامه كلها ستصير ضحى، بل تمنحه ما هو أثمن: عينا ترى العناية حتى حين يسجو الليل.

ومن هنا تبدأ رحلتنا؛ من ذلك القسم المضيء الذي سبق الجواب، ومن ذلك الضحى الذي لم يكن مجرد وقتٍ من النهار، بل كان أول كلمةٍ مرئيةٍ قالها الكون لقلبٍ ينتظر كلام السماء.

الفصل الأول

﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾

حين يقسم الله بتعاقب الأحوال

قبل أن يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، أراه مشهدًا من صنعه: ضحى يفيض بالنور، وليلاً يسجو في سكونة.

لم يبدأ الجواب بالنفي، وإنما بدأ بالكون.

وكان بعض الحقائق لا يكفي أن تُلقى في السمع، بل ينبغي أن يُهَيَّأ القلب لرؤيتها. فالروح التي أثقلها الانتظار قد تمر بها العبارة بسرعة، أما المشهد فيدخل إليها على مهل. ولهذا أقام الله أمام قلب نبيه ﷺ آيتين تتكرران كل يوم: نورًا يملأ الآفاق، وليلاً يغطيها، ثم ترك لتعاقبهما أن يكشف المعنى الأول في السورة:

إن تغيّر المشهد لا يعني تغيّر المدبر.

فالضحى والليل حالان مختلفان، لكنهما صادران عن مشيئة واحدة، يجريان بنظام واحد، ويؤدي كلُّ منهما وظيفته في بناء الحياة. وإذا كان الإنسان يفرح بأحدهما ويستوحش من الآخر، فإن شعوره لا يغيّر حقيقة أن كليهما آية، وأن كليهما واقع في موضعه من التدبير.

وهنا تبدأ السورة في معالجة أصل خفي من أصول القلق الإنساني: **اعتقاد القلب أن تغيّر الحال دليل على تغيّر منزلة الإنسان عند الله.**

فإذا أقبلت النعمة ظن أن الله قد رضي عنه، وإذا تأخر مطلوبه خاف أن يكون قد سقط من العناية. وإذا انفتحت له أبواب العمل حسب ذلك علامة القرب، فإذا أغلقت استولى عليه شعور الهجر. إنه يقيس ثبات المحبة الإلهية بتقلب ظروفه، مع أن الظروف تتغير لحكمة، ولا يتغير علم الله، ولا يضطرب تدبيره، ولا تخرج حياة عبده لحظة عن إحاطته.

ولهذا لم يكن القسم بالضحى والليل زينةً لفظية تسبق المعنى، بل كان تمهيداً عميقاً له: كما لا يدل مجيء الليل على أن الله هجر الكون، لا يدل فتور الوحي على أن الله ودّع رسوله ﷺ.

لماذا الضحى؟

الضحى هو صدر النهار حين ترتفع الشمس ويقوى نورها وينبسط في الآفاق. وليس هو لحظة انبثاق الفجر الأولى، حين لا يزال الضوء رقيقاً يصارع بقية الظلام، وإنما هو الضوء وقد ظهر واستقر وانتشر؛ فلا التباس فيه ولا تردد.

وهذا الاختيار شديد المناسبة لمقصد السورة.

فالرسالة التي بدأت في غار حراء كخيطة فجرٍ أول، كانت موعودةً بأن تبلغ ضحاها؛ أن يظهر نورها، ويتسع مداها، ويخرج من قلب رجلٍ واحد إلى ضمير أمة، ثم من شعاب مكة المحاصرة إلى آفاق الأرض. وقد كانت لحظة فتور الوحي تبدو في الحس توقفاً، بينما كانت في ميزان القدر جزءاً من طريق النور إلى تمامه.

أقسم الله بالضحى وكأن في القسم بشارَةً خفية: إن هذا النور الذي تخشى أن يكون قد انقطع سيبلغ مداه. وما تراه الآن سكونًا ليس خاتمة القصة؛ فالأفق الذي قد يبدو فارغًا في لحظة، يخبئ في تدبير الله صباحًا كاملاً.

والضحى ليس ضوءًا فحسب، بل زمن الحركة والانكشاف. فيه تخرج الأشياء من غموضها، وتتضح الطرق، ويستعيد العالم ألوانه التي وحّدها الظلام. وحين يقسم الله به في مطلع سورة المواساة، فإنه يضع القلب أمام حقيقة النور قبل أن يخاطبه عن معنى الرجاء. فالرجاء في القرآن ليس تخديرًا نفسيًا، ولا أمنيةً يبتكرها الإنسان ليحتمل قسوة الحياة، بل هو قراءة في سنن الله: لليل حد، وللستر أجل، وللحق ضحى وإن طال انتظاره.

غير أن السورة لم تقسم بالضحى وحده. ولو فعلت، لربما توهم الإنسان أن العناية لا تكون إلا في الضوء، وأن الحياة لا تستقيم إلا حين تكون واضحةً ميسرة، وأن كل عتمة خروجٌ عن الرحمة. لذلك جاء القسم الثاني:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾.

الليل حين يسجو

لم يقل: والليل إذا أظلم، ولا إذا اشتد، ولا إذا أقبل؛ بل قال: ﴿إِذَا سَجَى﴾. والسُّجُوّ يحمل معنى السكون والاستقرار والامتداد والستر. إن الصورة ليست لليل مفزع تزمجر في ظلمته الأخطار، بل لليل قد سكن، وغشي الأشياء في هدوء، واستقر على العالم كغطاء واسع. ففي اللفظة طمأنينة خفية، كأن القرآن ينزع من الظلام وحشته قبل أن يجعله صورةً للحال التي مرّت بقلب النبي

فالليل هنا ليس عدوًا للضحى، وإنما شريكه في انتظام الحياة.

في الضحى تتحرك الكائنات، وفي الليل تسكن. في الضوء ترى العين ما حولها، وفي الظلمة تسترد الروح هدوءها. وليس كل ستر حرمانًا، كما أن ليس كل ظهور عطاء. قد يحجب الله بعض الأشياء عنك رحمةً بك، وقد يسكن حركة الحياة حولك ليعيد بناء شيء في داخلك، وقد يضع بين مرحلتين من العطاء زمنًا من الصمت حتى يتهيأ القلب لما سيحمله بعده.

ليس معنى ذلك أن الإنسان يعرف دائمًا حكمة الليل وهو فيه. فالليل لا يقدم تفسيره للمسافر، ولا يكشف الظلام عن غايته لمجرد أن القلب ضاق به. لكن السورة تمنحه أساسًا أعمق من معرفة التفاصيل: تمنحه الثقة بمن دبرها. وليس اليقين أن تعرف سر كل ما يقع، بل أن تعرف أن ما خفي عليك سرّه لم يخرج عن حكمة الله.

ومن دقائق التعبير أن السورة قيّدت الليل بحال سجوه: ﴿إِذَا سَجَى﴾، بينما أطلقت الضحى من غير قيد. وكأن الضحى قائم بحضوره وإشراقه، أما الليل فالمقصود منه تلك اللحظة التي يبلغ فيها سكونه مداه، حين يبدو كل شيء قد توقف. هناك، عند اكتمال السكون، يكون الوعد أقرب إلى القلب: إن ما يبدو توقفًا في المشهد لا يعني أن التدبير قد توقف وراءه.

فالليل ساكن، لكن الأرض لا تتوقف عن الدوران.

والبذور في أعماقها لا تتوقف عن التهيؤ.

والأجساد النائمة تستعيد قواها.

والقدر، وهو خفي عن الأبصار، يمضي إلى مواعيده.

وهكذا كان فتور الوحي: سكوناً في الظاهر، لا فراغاً في الحقيقة.

بلاغة التجاور بين الضوء والليل

تضع الآيتان الضحى إلى جوار الليل، لا لتصنعا تضاداً جمالياً فحسب، وإنما لتعيداً لتعليم الإنسان كيف يرى اختلاف الأحوال. فالإنسان إذا كان في الضحى نسي الليل، وإذا أحاط به الليل خُيِّل إليه أن الضحى كان حلمًا بعيدًا. أما القرآن فيجمع المشهدين في قسم واحد، لأن الحقيقة لا تُرى من نصفها.

الحياة ليست ضحى وحده، وإلا احترقت الحركة ولم تجد الروح سكينتها. وليست ليلاً وحده، وإلا تعطلت الخطى وفقدت الأشياء معالمها. إنما تنضج النفس بتعاقبهما: ظهورٍ وستر، حركةٍ وسكون، عطاءٍ وانتظار، وضوحٍ وحيرة، فتح وإرجاء.

ومن يريد أن يفهم عناية الله من الضحى وحده سيضطرب كلما أقبل الليل. أما من أدرك أن رب الضحى هو رب الليل، فقد عرف أن اختلاف الحال لا يعني اضطراب الرعاية.

وهذه المعرفة لا تلغي وجع الظلمة، لكنها تمنع الوجع من التحول إلى سوء ظن بالله.

فالقرآن لا يطلب من صاحب الليل أن يدّعي أن الظلام ضوء، ولا من المحزون أن يسمي ألمه فرحاً. إنه لا يبطل المشاعر، ولكنه يصحح الأحكام التي تتولد منها. قد يكون الليل ثقیلاً، لكن ثقله لا يعني أنه بلا حكمة. وقد

يتأخر الجواب، لكن تأخره لا يعني أن الدعاء ضاع. وقد يغيب عنك أثر العناية، لكن غياب الأثر عن إدراكك ليس غياب العناية عن حياتك.

ذلك أن الإنسان يرى اللحظة، والله يعلم الطريق كله.

يرى الباب المغلق، ولا يرى ما صُرف عنه خلفه.

يرى ما تأخر، ولا يرى ما ينضج في مدة التأخير.

يرى الصمت، ولا يسمع ما يُهَيَّأ له في الغيب.

ولهذا جاء القسم الكوني ليحرر القلب من طغيان الرؤية العاجلة. فالشمس لا تحتاج إلى أن تراها كي تكون موجودة، والتدبير لا يحتاج إلى أن تفهمه كي يكون جاريًا.

حين يبدو الصمت جوابًا قاسيًا

ثمة أوقات لا يؤلم الإنسان فيها وقوع البلاء بقدر ما يؤلمه صمت المعنى. لو عرف لماذا حدث ما حدث، أو إلى أين يمضي به الطريق، لاحتمل كثيرًا من المشقة. لكنه يقف أحيانًا أمام أحداث لا تفسّر نفسها: دعاء يتأخر جوابه، وسعي لا تظهر ثمرته، وباب يظل مغلقًا مع طول الوقوف، وحق واضح لا يأتيه النصر بالسرعة التي ينتظرها.

وفي هذه المسافة بين السؤال وظهور الجواب يتكاثر التأويل.

يدخل الشيطان إلى القلب لا من باب إنكار الله، بل من باب إساءة الظن به؛ فيهمس للإنسان أن التأخر إهمال، وأن المنع إهانة، وأن شدة الطريق دليل

على أن الله لا يريد. وتدخل أصوات الناس من الباب نفسه، فتقيس مكانة الإنسان بما ظهر من حظه، وتفسر ضعفه المؤقت على أنه سقوط نهائي.

وهذا قريب من المناخ الذي نزلت فيه السورة: فتورٌ في الوحي، ثم كلمة جارحة تحاول أن تحوّل الفتور إلى وداع، والتأخر إلى قلى.

لكن سورة الضحى لا تناقش الشائعة بلغتها؛ لا تنزل إلى ضيق التفسير البشري، بل ترفع النبي ﷺ إلى سعة الكون. تقول له، بما يوحي به افتتاحها: انظر إلى الضحى والليل. هل انقطع أمر الله عن العالم حين أظلم؟ هل غادرت الرعاية حين سكن؟ إذا كنت تعلم أن وراء الليل صباحًا كتبته الله، فاعلم أن وراء هذا السكون من أمر الرسالة ما لم يظهر مواعده بعد.

إنها لا تجيب فقط عن سؤال: لماذا فتر الوحي؟ بل تبني في القلب قدرةً على العيش خلال الفتور من غير أن ينكسر يقينه.

وهذه مرتبة أعلى من مجرد زوال المحنة. فقد يرفع الله البلاء عن الإنسان، لكنه يظل خائفًا من عودته. أما القرآن فيصنع له فهمًا يستطيع به أن يعبر أوقات الظلمة المقبلة. لا يعطيه ضوء اللحظة فقط، بل يعلمه قانون تعاقب الضوء والظلال.

ليس كل تأخير وداعًا

من أشد أوهام النفس قسوة أن تظن أن ما تأخر عنها قد رُفض، وأن الباب الذي لم يفتح في الوقت الذي حددته لنفسها لن يفتح أبدًا. فهي لا تتألم من الانتظار وحده، بل تضيف إليه حكمًا نهائيًا: لقد انتهى الأمر.

لكن الله لا يدبر حياة الإنسان وفق عجلة خوفه.

قد يؤخر عنه شيئاً حتى يستكمل استعداد له، أو يدفع عنه به مفسدة لا يراها، أو ينقله من التعلق بالعطية إلى معرفة المعطي، أو يربي فيه قدرة لا تنشأ إلا في زمن الانتظار. وليس كل تأخير منعاً، كما أن ليس كل منع حرماناً، وليس كل صمت وداعاً.

وقد تكون أقسى لحظات الطريق هي اللحظات التي يُعاد فيها تشكيل القلب ليحمل ما طلبه.

إن الثمرة لا تفسر صمت البذرة تحت التراب إلا بعد أن تظهر. وقبل ظهورها يبدو المشهد كله دفناً، بينما هو في الحقيقة بداية حياة. وكذلك بعض أقدار الإنسان: لا يعرف اسمها الصحيح وهي تجري؛ يسميها ضياعاً، ثم يكتشف بعد عبورها أنها كانت حفظاً، ويسميها إقصاءً، ثم يراها توجيهاً، ويسميها فراغاً، ثم يتبين أنها كانت مدة إعداد.

غير أن هذا المعنى ينبغي ألا يتحول إلى جزم بتفسير كل مصيبة أو ادعاء معرفة الحكمة الخاصة في كل تأخير. فليس لنا أن نخترع عن الله أجوبة لم يخبرنا بها. يكفينا من اليقين أن نعلم أن أقداره لا تجري عبثاً، وأن رحمته لا تُقاس بإدراكنا العاجل، وأن غياب الحكمة عن عقولنا لا يعني غيابها عن أفعاله سبحانه.

فالتدبر الصحيح لا يملأ الغيب بالتخمين، بل يملأ القلب ثقةً برب الغيب.

ضحى الرسالة

كان الضحى في مطلع السورة مشهدًا كونيًا، لكنه سيغدو في حياة النبي ﷺ حقيقةً تاريخية. الرجل الذي آذاه قومه، وسخروا من دعوته، وحاصروه في مكة، سيأتي يوم تدخل فيه جموع الناس في دين الله. والقرآن الذي تنزلت آياته على قلب رجل مستضعف ستتلوه السنة في مشارق الأرض ومغاربها. والبيت الذي امتلأ بالأصنام سيعود منارةً للتوحيد.

لكن شيئًا من ذلك لم يكن قد اكتمل ساعة نزول السورة.

وهنا يظهر معنى الوعد في القسم: كان الله يري نبيه نموذجًا متكررًا في الكون لما ستبلغه رسالته في التاريخ. فكما يرتفع الضوء قليلًا قليلًا حتى يصير ضحى، سترتفع كلمة الحق، وإن مرّت قبل تمام ظهورها بليالي الحصار والتكذيب والهجرة والقتال.

لم يكن المطلوب أن يرى النبي ﷺ نهاية الطريق بعينه في تلك اللحظة؛ كان المطلوب أن يثق بمن يرى البداية والنهاية معًا.

والإيمان دائمًا يبدأ من هنا: أن يثبت القلب على الحقيقة قبل أن تكتمل شواهداها في الواقع.

الليل ليس إقامة أبدية

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ إشارة تهدد القلب من غير أن تصرح: الليل حالة عابرة في نظام لا يتوقف. مهما بلغ سجوه فهو لا يستطيع إلغاء الصباح، ولا أن يمحو قانون الضوء من الوجود.

والمحنة كذلك، مهما اتسعت حتى حُيِّل للإنسان أنها غطت حياته كلها، تظل جزءًا من العمر، لا العمر كله. لكن النفس حين تتألم تفقد الإحساس بالحدود؛ ترى الحزن واقعًا أبدىً، وتتصور أن اللحظة ستكرر نفسها إلى غير نهاية. تأتي السورة لتضع الألم داخل الزمن من جديد: هذا ليل، والليل وإن سجا لا يملك الخلود.

وقد لا يكون الضحى القادم صورةً مطابقة لما تمناه الإنسان. ربما لا يعود إليه ما فقده، ولا يُفتح له الباب نفسه، ولا تأتي النجاة من الطريق الذي ظل يرقبه. لكن الله قادر أن يخلق له من وراء الفقد معنى، ومن وراء الانغلاق سعة، ومن قلب التجربة إنسانًا أبصر وأعمق وأقرب إليه.

فالضحى ليس دائمًا استعادة الماضي؛ قد يكون خلق مستقبل لم يكن القلب قادرًا على تخيله.

التربية بين الإشراق والسكون

لا تربى العناية الإلهية الإنسان بالمنح وحدها. فالمنح تكشف له الكرم، لكن الانتظار يكشف له نفسه. في أوقات السعة قد يظن أنه قوي، فإذا تأخر عنه ما يحب رأى مقدار افتقاره. وقد يحسب أنه متوكل، فإذا اضطربت الأسباب عرف إلى أي شيء كان قلبه مستندًا. وقد يتحدث عن الرضا بسهولة، حتى تأتيه الأقدار بما يخالف اختياره.

ليست الليالي دائمًا عقوبة؛ قد تكون تربية رفيقة وإن كانت مؤلمة. تنزع عن القلب أوهامه، وتعيد إليه ترتيب محبوباته، وتجعله أكثر صدقًا في الافتقار إلى الله.

والضحى بدوره ليس مجرد مكافأة بعد الاحتمال؛ إنه وقت العمل بما تعلمه الإنسان في الليل. فالذي ذاق الوحشة ينبغي أن يكون أرحم بالموحشين، والذي عرف الانتظار أقدر على مواساة المنتظرين، والذي رأى النور بعد العتمة أجدر بأن يدل عليه من لا يزالون في الطريق.

لهذا ستنتهي سورة الضحى إلى اليتيم والسائل والنعمة. إن الليل الذي عبره القلب لم يكن تجربة خاصة تنقضي، بل كان إعدادًا أخلاقيًا. يريد الله للإنسان بعد أن يخرج من ليله ألا ينسى الذين لا يزال الليل ساجيًا فوق حياتهم.

بين ضحى الأفق وضحى القلب

قد تشرق الشمس في الخارج، ويبقى في النفس ليل طويل. وقد يشتد ظلام العالم حول المؤمن، ويكون في قلبه ضحى من اليقين لا تنطفئ شمسهُ. فالنور الذي تصنعه السورة ليس تبديل الظروف وحدها، بل تصحيح الرؤية التي تُقرأ بها الظروف.

إنها لا تمنح الإنسان قدرةً على التحكم في تعاقب أحواله، وإنما تمنحه ما هو أبقي: ألا يفقد معرفة ربه حين تتغير الأحوال.

فإذا جاء الضحى شكر ولم يغتر.

وإذا سجا الليل صبر ولم يسيئ الظن.

وإذا أعطي عرف المنعم.

وإذا تأخر عنه العطاء لم يتوهم أنه صار منسيًا.

وهكذا يستقر القلب، لا لأن العالم توقف عن التغير، بل لأن معرفته بالله صارت أثبت من تغير العالم.

لقد أقسم الله بالضحى والليل قبل أن ينفي التوديع والقلى، لأن الجواب كان مكتوباً في تعاقبهما: لا الليل دليل هجر، ولا احتجاب الضوء موتاً للشمس، ولا فتور الوحي انقطاعاً للود.

ثم جاءت الآية التالية لتقول صراحةً ما مهّد له الكون كله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

هناك تنتقل السورة من الآفاق إلى القلب، ومن مشهد العناية في الكون إلى إعلانها في حياة الرسول ﷺ؛ فتضع يدها على أصل الوجد، وتجيّب عنه بكلمات قليلة لو وُزعت طمأنينتها على قلوب المحزونين لكفتهم:

لم يودعك.

ولم يبغضك.

وما حسبته انقطاعاً لم يكن إلا سكوناً عابراً بين ضحيين.

الفصل الثاني

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾

حين يتأخر الوحي ولا ينقطع الود

جاءت الآية قصيرة، ولكنها وقفت بين قلب النبي ﷺ وبين كل ما أراد الحزن أن يقوله له: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

كلمتان منفيتان: لا وداع، ولا قلى.

فإذا كان الوداع يعني مفارقة المحبوب بعد صحبة، فإن القلى يعني البغض والنفور. وقد نفت الآية الأمرين جميعاً؛ نفت أن يكون فتور الوحي مفارقةً، ونفت أن يكون سببه بغضاً. وبذلك لم تترك للوسوسة منفذاً: ما انقطعت الصلة، وما تبدلت المحبة.

إن الحزن لا يكتفي غالباً بوصف ما حدث، بل يندفع إلى تفسيره بأقصى الاحتمالات. لا يقول الإنسان لنفسه: تأخر الأمر، بل يقول: لن يأتي. ولا يقول: تبدلت الظروف، بل يقول: لقد انتهيت. ولا يقول: غابت عني علامة العناية، بل يقول: لم أعد موضعاً لها.

ومن هنا كانت حاجة القلب إلى الوحي؛ لأن النفس إذا تركت لقراءتها وقت الألم، قد تجعل من الغيمة العابرة مناخاً أبدياً، ومن الصمت حكماً نهائياً، ومن التأخير إعلاناً بالرفض.

فجاء الجواب من فوق سبع سماوات ليمنع الألم من تفسير العلاقة بالله: ﴿لَمَّا
وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾.

جواب عن كلام لم ينطق به النبي ﷺ

تذكر كتب التفسير أن الوحي فتر مدة، فقال بعض المشركين ما معناه: إن رب محمد قد تركه أو أبغضه. كانت كلمة أراد أصحابها بها الطعن في الرسالة وإيلام الرسول ﷺ. وهم يعلمون أن أشد المواضع حساسيةً في قلبه هو موضع الصلة بربه، فأرادوا أن يجعلوا من فتور الوحي سلاحاً نفسياً.

لكن الآية، وإن كانت ترد على قولهم، تتجاوز كلامهم إلى ما قد يتركه الكلام في النفس من أثر. فهي لا تجادل المشركين، ولا تذكرهم، ولا تمنحهم حضوراً داخل خطاب المواساة؛ بل تتوجه مباشرةً إلى النبي ﷺ. فليس المهم ضجيج القائلين، وإنما سلامة القلب الذي استهدفوه.

وهذا من لطف الخطاب القرآني: أنه لا يجعل المسيء محور المشهد، بل يلتفت إلى المجروح. لا يكرر العبارة الجارحة، وإنما يبطل معناها. ولا يشغل النبي ﷺ بتتبع أصوات الساعرين، وإنما يرده إلى الحقيقة التي لا يستطيع كلامهم تغييرها.

فالناس قد يملؤون الفراغ بتفسيراتهم، ولكن أقوالهم لا تصنع حقيقةً عند الله.

قد يقولون عن المتأخر إنه فشل.

وعن المبتهلى إنه هان.

وعن المظلوم إن خذلانه دليل بطلانه.

وعن الذي اختفى أثره إنه انتهى.

غير أن الحقيقة لا تُقاس بصوت الجمهور، ولا تتبدل لأن الساخرين امتلكوا لحظةً صاخبة. كم من أمرٍ ظن الناس أنه انطفأ، وكان الله يهيئ له امتدادًا لا يرونه. وكم من إنسانٍ أعلنوا نهايته في فصلٍ قصير، ثم كشف الزمن أنهم لم يكونوا يقرؤون إلا هامشًا من قصته.

وقد كان المشركون يرون فتور الوحي، لكنهم لم يكونوا يرون ما وراءه. رأوا اللحظة، ولم يروا الرسالة في تمامها. أمسكوا بالصمت العابر، وغاب عنهم القرآن الذي سيبقى صدها حتى قيام الساعة.

سر التعبير بـ﴿رَبُّكَ﴾

لم تقل الآية: ما ودعك الله، وإنما قالت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾.

واختيار وصف الربوبية هو قلب المواساة في الآية؛ لأن «الرب» هو المالك المدبر المربي، الذي يتولى عبده برعايته وينقله في أطوار حياته إلى ما شاء له. وإضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ: ﴿رَبُّكَ﴾ تمنح الخطاب قربًا خاصًا، وتستدعي تاريخًا طويلًا من الحفظ والتربية.

كأن الكلمة وحدها تقول: إن لك ربًّا تولى أمرك قبل أن تعرف كيف تسأل، وحفظك قبل أن تدرك وجوه الخطر، وأعدك للرسالة قبل أن تعلم أنك مبعوث، فكيف يُعقل أن يكون ما جرى الآن وداعًا؟

لقد كان النبي ﷺ يتيماً لا يملك حماية الأب، فأواه الله. وكان لا يدري تفاصيل الكتاب والإيمان الذي أوحاه الله إليه، فهداه بالوحي. وكان عائلاً، فأغناه بما

ساق إليه من الكفاية. وكل ذلك سيُذكر بعد قليل دليلاً على أن ربوبية الله له لم تبدأ مع نزول الوحي حتى يُتوهم أنها انتهت بفتوره، بل كانت تسبقه منذ أول الطريق.

فقبل أن يعرف محمد ﷺ الرسالة، كان الله يعدّه لها.

وقبل أن يسمع كلمات الوحي، كانت العناية تصوغ قلبه الذي سيحملها.

وقبل أن يعرف الناس مقامه، كان محفوظاً بعلم ربه وتدبيره.

ومن هنا تغدو كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ رداً كاملاً على وهم التوديع. فالرب لا يبدأ تربية عبده ثم يتركها عبثاً في منتصف الطريق. وما قد يراه الإنسان توقفاً يكون أحياناً انتقالاً بين مرحلتين من مراحل التربية.

إن الله سبحانه منزّه عن النقص كله، لا تبدو له البدوات، ولا يفاجئه أمر لم يكن في علمه، ولا يجري تدبيره على اضطراب الأهواء البشرية. وما قد يوهمه لفظ الوداع في علاقات الناس من تبدلٍ بعد قرب، أو فتورٍ بعد محبة، نفاه الله عن نفسه في حق نبيه ﷺ نفياً قاطعاً.

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾: نفي النهاية

في الوداع معنى المفارقة بعد الأنس. ولهذا كانت الكلمة قادرةً على ملامسة أصل الوحشة التي أحدثها فتور الوحي: هل انتهت تلك الصلة الخاصة؟ هل كانت الأيام السابقة من التنزيل مرحلةً ثم انقضت؟ هل سيبقى القلب بعد أن ذاق كلام السماء منتظراً فلا يأتيه شيء؟

فجاء النفي: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾.

وليس المعنى أن الوحي لن يفتر بعد ذلك لحكمة، أو أن حياة النبي ﷺ لن تمر بمشقات وأوقات انتظار؛ وإنما المعنى أن شيئاً من تلك الأحوال لا يجوز تفسيره بأنه تخلّ من الله عن نبيه.

وهذا التفريق بالغ الأهمية: فقد تتغير صورة العناية، لكنها لا تنقطع. وقد ينتقل العبد من طور إلى طور، فيظن أن انتهاء الصورة القديمة انتهاء للرعاية نفسها. اعتاد باباً يأتيه منه الخير، فإذا أغلق حسب أن الخير انقطع، مع أن الله قد يفتح له باباً آخر، أو يربيه في مدة الإغلاق على معنى لم يكن ليتعلمه في زمن الفتح.

نحن نتعلق غالباً بصورة النعمة أكثر من تعلقنا بحقيقة المنعم. فإذا تغيرت الصورة اضطرب يقيننا، كأن الله لا يستطيع أن يرعانا إلا بالطريقة التي ألفناها. وسورة الضحى تحرر القلب من هذا التضيق: ربك الذي جاءك فضله بالأمس من طريق، ليس محصوراً في ذلك الطريق؛ وعنايته أوسع من العلامة التي اعتدت أن تقيسها بها.

كان الوحي نعمةً مخصوصةً بالنبي ﷺ، ولا يقاس عليها غيره في خصوصيتها؛ فقد انقطع الوحي بوفاة ﷺ. لكن القانون الإيماني الذي تبنيه السورة باقٍ: لا يجوز أن نجعل تأخر ما نرجوه دليلاً على أن الله أهملنا أو أبغضنا. فنحن لا نعلم تفاصيل الحكمة، لكننا نعلم كمال علمه ورحمته وعدله وحكمته.

﴿وَمَا قَلَى﴾: نفي البغض

لم تكتف الآية بنفي الوداع، بل أتبع ذلك بنفي القلى.

فقد يفارق الإنسان غيره مع بقاء المحبة؛ يرحل عنه لضرورة، أو تحول بينهما المسافات، ولا يكون الود قد انقطع. لذلك كان نفي الوداع وحده غير كافٍ لإزالة كل ما أثارته الشائعة. فجاء: ﴿وَمَا قَلَى﴾، أي: وما أبغض.

كأن الآية تحاصر الخوف من جهتيه:

لم يفارقك ربك، ولم يتبدل رضاه عنك.

لم تنقطع الصلة، ولم ينقلب الود قلى.

والقلب قد يحتمل غياب ما يحب إذا كان مطمئنًا إلى بقاء المحبة، لكنه ينهار حين يفسر الغياب على أنه بغض. لذلك لم تعالج الآية ظاهر الحادثة فقط، بل بلغت إلى الجرح الأعظم الذي يمكن أن ينشأ منها.

إن أشد ما يؤلم المؤمن في البلاء ليس الوجد المجرد، بل أن يخشى أن يكون البلاء علامة سخط. ولهذا يحتاج إلى ميزان شرعي لا يتركه أسيرًا لظنونه. فليس كل رخاء كرامة، ولا كل شدة إهانة؛ وقد أبطل القرآن هذا المقياس في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝ كَلَّا﴾.

وهذه الـ﴿كَلَّا﴾ تهدم ميزانًا فاسدًا يسكن في النفس: أن العطاء الدنيوي شهادة رضا مطلقة، وأن التضييق شهادة إهانة. فقد يُعطى الإنسان استدراجًا، ويُمنع حمايةً، ويُبتلى رفعا، ويُمهّل امتحانًا. ولا تُعرف منزلة العبد عند الله بمجرد

اتساع حظه في الدنيا أو ضيقه، بل بإيمانه وتقواه وما أقامه الله فيه من طاعة وعبودية.

ومن الخطأ أن تُنتزع آية ﴿وَمَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ من خصوص خطابها للنبي ﷺ، ثم يُقال لكل أحد على سبيل الجزم: إن الله راضٍ عنك مهما كنت، ولم يبغض منك شيئاً مهما فعلت. فالقرآن لا يمنح الإنسان أماناً من المحاسبة، ولا يلغي أثر المعصية. لكن الآية تعلم المؤمن ألا يفسر البلاء وحده بأنه قلى، وألا يقرأ تأخر مطلوبه كأنه حكم من الله على قيمته.

المعصية تحتاج إلى توبة، والبلاء يحتاج إلى صبر، والنعمة تحتاج إلى شكر؛ أما الظن بالله فيبقى محكوماً بما عرّفنا به سبحانه من كمال رحمته وحكمته وعدله.

لماذا قال: ﴿وَمَا قَلَى﴾ ولم يقل: وما قلاك؟

من لطائف النظم أن الآية قالت: ﴿وَمَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ فذكرت ضمير المخاطب، ثم قالت: ﴿وَمَا قَلَى﴾ فحذفت المفعول، ولم تقل: «وما قلاك».

وقد ذكر المفسرون والبلاغيون في ذلك وجوهاً، من أجملها أن حذف الضمير ينسجم مع فاصلة السورة، وأنه يوسع النفي، فلا يكون القلى متجهاً إلى النبي ﷺ بحال، كما أن في حذف اللفظ الذي يعود عليه بالبغض لطفاً في الخطاب؛ فلا يجتمع ذكر النبي ﷺ صريحاً مع فعل القلى في العبارة، حتى في سياق النفي.

ومع ضرورة ألا نتكلف سرًّا بلاغيًّا لا يثبتته اللسان، فإن الأثر الجمالي للحذف ظاهر: جاءت الجملة خفيفةً سريعةً قاطعة، ﴿وَمَا قَلَى﴾، كأن القلى شيء لا يستحق أن يطول ذكره في مقام المواساة.

إن البلاغة هنا لا تتزين حول المعنى؛ بل تتلطف به. حتى النفي صيغ بطريقة لا تثقل على القلب المطمأن إليه.

حين يفسر القلب الصمت

ليس الصمت شيئًا محايدًا في داخل الإنسان. إذا غاب عنه الجواب، بدأ يصنع أجوبةً من مخاوفه. وكلما كان الشيء المنتظر عزيزًا، كان الصمت المحيط به أثقل.

وقد ينتظر المرء فرجًا فلا يأتي في موعد أمله، فيقول: لم يُستجب لي.

ويطلب نصره الحق فيراها تتأخر، فيقول: ترك الحق.

ويسعى في عمل نافع ثم لا يجد الاعتراف، فيقول: ضاع جهدي.

ويفقد شخصًا أو مكانًا أو فرصة، فيقول: انقطعت عناية الله عن حياتي.

لكن هذا كله تفسير زائد على الواقعة. الواقعة أن الأمر تأخر، أو أن الباب أغلق، أو أن الفقد حدث. أما الحكم بأن الله قد ترك الإنسان فليس شيئًا تراه العين؛ إنه معنى يصنعه الخوف، وقد يصنعه الشيطان، وقد يزرعه كلام الناس.

وسورة الضحى تفصل بين الحدث وتأويله.

نعم، فتر الوحي.

لكن لا، لم يكن ذلك وداعًا.

نعم، سجا الليل.

لكن لا، لم تمت الشمس.

نعم، قد تخفى آثار العناية.

لكن لا، لا يصبح خفاؤها دليلًا على غيابها.

وهذا الفصل بين الحدث وتفسيره من أعظم أبواب السلام النفسي والإيماني. فكثير من الناس لا تسحقهم الوقائع وحدها، وإنما تسحقهم المعاني القاسية التي ألصقوها بها. قد يتحمل الإنسان خسارة فرصة، لكنه لا يتحمل قوله لنفسه: أنا منسي. وقد يصبر على المرض، لكنه ينهار إذا أوهمه أن الله يعاقبه حتمًا أو لا يرحمه. وقد يواجه الظلم، لكنه يتفتت إذا صدق أن انتصار الظالم المؤقت يعني أن ميزان الحق قد سقط.

والقرآن لا يعده بأن يعرف فورًا لماذا وقع كل شيء، لكنه يمنعه من أن يملأ منطقة الجهل بسوء الظن.

بين الإبطاء والإهمال

الإبطاء زمن، والإهمال موقف، ولا يلزم من الأول الثاني.

قد يتأخر الشيء لأن له وقتًا أصلح، أو لأن وصوله الآن يفسده، أو لأن الإنسان نفسه لم يتهيأ له، أو لأسباب لا يبلغها علمه. أما الإهمال فيعني الغفلة عن حاله أو عدم العناية به، والله سبحانه منزّه عن الغفلة والنسيان: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

إن الإنسان، بحكم محدوديته، يربط الاهتمام بالسرعة. إذا أحب أحدًا أسرع إليه، وإذا أراد مساعدته عاجل بها؛ ولذلك قد يقيس تدبير الله على طبيعته البشرية، فيظن أن تأخر الفرج معناه نقص العناية. لكنه ينسى أن الله يعلم ما لا يعلم، ويرى من مآلات الأمور ما لا يرى، وأن رحمته لا تعمل وفق استعجال البشر، بل وفق علم كامل وحكمة بالغة.

وليس في هذا دعوة إلى السكون وترك الأسباب؛ فانتظار الله لا يعني تعطيل العمل. النبي ﷺ الذي نزلت عليه السورة لم يترك الدعوة منتظرًا تبدل الأحوال، بل ظل يحمل الرسالة ويأخذ بأسبابها. اليقين لا يلغي السعي؛ إنه يحرره من الذعر. يجعلك تعمل لأن العمل عبادة ومسؤولية، لا لأنك تتوهم أنك تمسك وحدك بمصير الأشياء.

رُبُّكَ فِي الطَّرِيقِ كُلِّهِ

من السهل أن نرى ربوبية الله في النجاة بعد اكتمالها، لكن السورة تعلمنا رؤيتها في الطريق إليها. كان الله ربَّ نبيه ﷺ حين نزل الوحي، وكان ربه

حين فتر. وكان ربه في مكة وهو مستضعف، كما كان ربه يوم دخلها منتصرًا. وكان ربه عند اليتيم، وعند الإيواء، وعند العيلة، وعند الإغناء.

لم تبدأ الربوبية بعد انقضاء الشدة؛ كانت هي التي تدبر الشدة ومخرجها.

وهذه الحقيقة إذا استقرت في القلب غيّرت معنى الانتظار. لا يعود الانتظار مساحةً خالية بين دعاء وإجابة، بل يصبح زمنًا من أزمنة العبودية. فيه يتعلم الإنسان الصبر، ويحسن الظن، ويصح قصده، ويأخذ بالأسباب، ويعيد تفويض النتيجة إلى الله.

لسنا مع الله فقط حين يصل القارب إلى الشاطئ؛ نحن في علمه ورعايته وتقديره حين تضطرب بنا الأمواج أيضًا.

وليس معنى ذلك أن كل ما يصيبنا محبوبٌ لنا، أو أن الظلم يصير عدلاً لمجرد وقوعه بقدر الله. فالظلم يبقى ظلمًا، والشرع يأمر بدفعه، والمظلوم مأمور أن يلتمس حقه بما يقدر عليه. لكن شرور الناس لا تعني أن الله قد تخلى عن عبادته، ولا أن خروجهم عن أمره الشرعي خروجٌ عن ملكه وقدره. وقد يمهّل الظالم ولا يهمله، ويؤخر إنصاف المظلوم لحكمة، ولا يضيع عنده حق ولا أنة ولا دمة.

حين تؤذك أحكام الآخرين

كانت كلمة المشركين محاولةً لتعريف علاقة النبي ﷺ بربه من خارجها. أرادوا أن يقولوا له: نحن نفسر لك ما وقع؛ إن ربك قد تركك.

وما أكثر الذين يحاولون أن يعرفوا الإنسان بنفسه من خلال لحظة ضعفه. إذا تعثر جعلوا التعثر هويته، وإذا أخفق مرةً جعلوا الإخفاق حقيقته، وإذا فقد سنده قالوا إنه لا قيمة له. إنهم لا يكتفون بأن يشاهدوا الألم، بل يضيفون إليه حكمًا يهدم صاحبه من الداخل.

لكن سورة الضحى تعيد سلطة التعريف إلى مصدرها الحق.

ليس خصومك هم الذين يحددون مقامك.

ولا الظرف العابر هو الذي يكتب قيمتك.

ولا ما فقدته يختصر حقيقتك.

ولا تأخر الثمرة يبطل صدق البذرة.

كان المشركون يملكون كلمةً ساخرة، وكان محمد ﷺ يملك وعد الله. اختفت كلمتهم مع أصحابها، وبقيت الآية تتلى. وهكذا يكون الفارق بين ضجيج اللحظة وحقيقة التاريخ.

إن ما يقوله الناس عنا قد يوجعنا، لكنه لا يتحول إلى قدر لمجرد أنهم قالوه. وقد تتكرر الكلمة حتى يبدو أنها حقيقة، غير أن تكرار الباطل لا يرفعه إلى مقام الحق. وما يحتاجه القلب في مواجهة الأحكام الجائرة ليس أن يدخل في معركة لا تنتهي مع كل صوت، بل أن يعود إلى الميزان الذي لا يجور: ماذا يعلم الله عنه؟ وأين يقف من أمره؟ وما الواجب الذي ينبغي أن يمضي فيه؟

المواساة التي لا تعزل صاحبها عن التكليف

قد يظن بعض الناس أن المواساة تعني إلغاء المسؤولية، وأن طمأنة الإنسان تقتضي إخباره بأنه مصيب في كل شيء. لكن سورة الضحى تجمع بين الرحمة والتكليف على نحو متوازن. بدأت بمواساة النبي ﷺ، ثم انتهت بأوامر: لا تقهر، لا تنهر، حدّث.

فالمواساة القرآنية لا تحبس الإنسان داخل ألمه، بل تعيده إلى رسالته. تطمئن قلبه حتى يستطيع أن يحمل مسؤوليته من جديد. إنها لا تقول له: اجلس طويلاً عند جرحك؛ بل تقول: ربك لم يتركك، فقم واجعل من عنايته بك رحمةً تتجاوزك.

وهذا هو الفارق بين المواساة التي تخدر، والمواساة التي تحيي. الأولى تمنح الإنسان عذراً دائماً للانكفاء، والثانية تمنحه قوةً للعودة إلى العالم من غير أن تنكر ما عاناه.

لقد واسى الله نبيه لأنه حامل رسالة، ولأن القلب المثقل يحتاج إلى الطمأنينة ليواصل السير. وفي هذا تكريم للطبيعة الإنسانية: حتى أعظم الناس إيماناً يحتاج إلى الكلمة الطيبة، وحتى أقوى القلوب قد تتألم من الشائعة الجارحة، وحتى حامل الوحي يحتاج إلى أن يسمع من ربه ما يبدد الوحشة.

ليس التأثر ضعفاً في اليقين بالضرورة، وإنما الضعف أن يتحول التأثر إلى استسلام، وأن يُسلّم زمام تفسير الحياة للحزن.

من النفي إلى الوعد

لو انتهى الخطاب عند ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ لكان فيه من المواساة ما يكفي لإبطال الخوف: ما انقطعت العناية، وما تبدلت المحبة. لكن السورة لا تكتفي بإعادة القلب إلى نقطة الأمان؛ بل تحمله منها إلى أفق أوسع.

فالنفي يزيل الوهم، أما الوعد فيبني الرجاء.

النفي يقول: لم تفقد ما كان لك.

والوعد يقول: وما يأتيك خير مما مضى.

لذلك انتقلت السورة من دفع الخوف إلى فتح المستقبل: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

إن الله لا يخبر نبيه فقط أن الحاضر ليس وداعاً، بل يخبره أن الطريق يتجه إلى خير أعظم. فليست المسألة عودة الوحي بعد فتوره فحسب، وإنما مستقبل الرسالة كله، وما أعده الله لنبيه في الدنيا والآخرة.

وحين يطمئن القلب إلى أنه لم يُترك، يصبح قادراً على النظر إلى الأمام.

فالمهجور — في وهمه — لا ينتظر شيئاً، أما من عرف أن ربه معه، فإنه يرى المستقبل ميداناً لوعد الله، لا مخزناً لمخاوفه.

وهكذا تخرج الآية بالقلب من سؤال موجه: «هل انتهى كل شيء؟» إلى جواب يفتح الزمن كله:

لم ينته شيء. إن الخير الأوفى لم يأت بعد.

الفصل الثالث

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾

حين يفتح الوحي نافذة في جدار اللحظة

بعد أن نفى الله عن قلب نبيه ﷺ وهم التوديع والقليل، لم يتركه واقفاً عند حدود الطمأنينة إلى بقاء الود، بل نقله إلى ما هو أبعد: إلى استشراف الخير القادم.

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

ليست الآية مجرد تعزية تقول إن الألم سيمضي، بل وعد بأن المسيرة تتجه إلى خير. وليس المقصود أن يستعيد النبي ﷺ ما كان عليه قبل فتور الوحي فحسب، وإنما أن القادم الذي أعده الله له خير من الماضي الذي عرفه.

وهذه نقلة دقيقة في مداواة القلب: فالمحزون يظل غالباً مشدوداً إلى الخلف، يتمنى عودة الأيام إلى صورتها السابقة، ويرى الشفاء في استرجاع ما فقد. أما القرآن فلا يعيده إلى الماضي، بل يفتح أمامه المستقبل. لا يقول له: سيعود كل شيء كما كان؛ بل يقول: إن ما يأتيك من فضل الله خير مما مضى.

فالرجاء القرآني لا يعيش على استنساخ الأمس، وإنما يثق بقدره الله على خلق غدٍ أوسع منه.

الآخرة والأولى

المعنى الأظهر في الآية أن الدار الآخرة خير للنبي ﷺ من الحياة الدنيا. فما أعدّه الله له عنده أعظم وأبقى من كل ما يناله في هذه الحياة من نصر وتمكين وفتح. والدنيا، مهما اتسعت لنبي أو صالح، تظل دارًا يعتري نعيمها النقص، ويهدد بقاءه الزوال؛ أما الآخرة فدار الجزاء الكامل، والقرب والرضوان، والنعيم الذي لا ينقطع.

ويمكن أن يدخل في عموم التعبير كذلك أن أواخر أمر النبي ﷺ خير من أوائله؛ فقد أخذت دعوته تنتقل من الاستضعاف إلى التمكين، ومن قلة الأتباع إلى دخول الناس في دين الله أفواجًا، ومن الحصار في شعاب مكة إلى قيام الأمة وانتشار الرسالة. غير أن هذا المعنى تابع للمعنى الأصيل، لا مزاحم له: فالخير الكامل الذي لا يشوبه ألم، ولا تعقبه خسارة، هو خير الآخرة.

وهذا التوازن ضروري؛ لأن تحويل الآية إلى وعد دنيوي مطلق لكل إنسان بأن مرحلته المقبلة ستكون أيسر ماديًا من مرحلته الماضية ليس مما تدل عليه. فقد يزداد المؤمن في الدنيا ابتلاءً، وقد يموت قبل أن يرى ثمرة صبره، وقد يمضي مظلومًا دون أن يُستوفى له حقه في الأرض. لكن الآخرة تجعل مسيرة المؤمن متجهةً إلى الخير يقينًا، لأن الله لا يضيع إيمانًا ولا صبرًا ولا عملًا صالحًا.

إن أفق المؤمن لا ينتهي عند آخر مشهد تراه عيناه في الدنيا.

ومن هنا تستمد الآية قدرتها الهائلة على تحرير الإنسان: فليس على الدنيا أن تحقق العدل كاملاً كي يبقى العدل حقًا، وليس على كل بذرة أن تثمر أمام

زارعها حتى يكون زرعها ذا معنى، وليس على المظلوم أن يشاهد في حياته سقوط ظالمه حتى يكون وعد الله صادقاً. ثمة آخرة تُستوفى فيها الحقوق، وتتكشف فيها الموازين، ويعلم الإنسان عندها أن شيئاً مما تحمله لله لم يذهب سدى.

الحزن يسجن الإنسان في اللحظة

للحزن قدرة غريبة على تضيق الزمن. حين يشتد، يبدو الماضي كله طريقاً إليه، ويبدو المستقبل كله امتداداً له. لا يعود الإنسان قادراً على تخيل حال غير حاله؛ يظن أن ما يشعر به الآن هو الصورة النهائية لحياته.

إذا ضاق به موضع، خُيل إليه أن الأرض كلها ضاقت.

وإذا أغلق باب، حسب أن الأبواب قد انتهت.

وإذا فقد شيئاً عزيزاً، رأى أن الحياة بعده مجرد بقايا.

وإذا طال الليل قليلاً، نسي أن للعالم صباحاً.

ولهذا جاء الوحي ليوسع الزمن الذي ضيقه الألم: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾. أي إن اللحظة التي أنت فيها ليست خاتمة الطريق، وما تراه الآن لا يملك أن يكتب معنى المسيرة كلها. أمامك من وعد الله ما يجعل الحكم النهائي مؤجلاً إلى أن يظهر تمام فضله.

الحزن يضع نقطة حيث وضع الله فاصلة.

والاستعجال يقرأ فصلاً واحداً ثم يزعم أنه عرف القصة.

أما الإيمان فيترك النهاية لمن يعلم النهايات.

وليس في ذلك إلغاء للواقع؛ فما يؤلمك الآن حقيقي، وما فقدته قد يكون عزيزاً لا يعوض بصورته ذاتها. لكن الحقيقة الأخرى، التي لا تقل واقعية، أن الله لم يجعل لحظتك الراهنة هي كل ما لك. إن أمام المؤمن مستقبلاً يمتد إلى ما بعد الموت، وهناك ينكشف الخير في صورته التي لا تستطيع الدنيا أن تمنحها.

اللام التي تؤكد الوعد

افتتحت الآية باللام: ﴿وَلِلْآخِرَةِ﴾، وهي تحمل معنى التوكيد، ثم جاءت الجملة اسمية مستقرة البناء: ﴿الْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ﴾. فالخطاب ليس أمنية محتملة، بل خبر مؤكد من الله.

وهنا تكمن قوة الرجاء الإيمانى: إنه لا يقوم على تفاؤل الإنسان بطبيعته، ولا على توقع أن تسير الأحداث وفق رغبته، وإنما يستند إلى خبر الله. قد تضعف القدرة على التفاؤل، وقد لا تحمل الأسباب الظاهرة ما يبعث على الطمأنينة، لكن الوعد يبقى أثبت من المشهد؛ لأن الذي أخبر به يعلم ما ظهر وما غاب.

ليس المطلوب من المحزون أن يصنع الأمل من طاقته النفسية كل صباح؛ فقد تنفذ الطاقة، وقد يعيبه استدعاء الكلمات المضيئة. إنما المطلوب أن يتكىء على صدق الله حين يعجز عن الاتكاء على شعوره.

فالإيمان لا يقول للإنسان: ثق لأنك قوي.

بل يقول له: اطمئن لأن ربك صادق الوعد.

وشتان بين رجاء يتوقف على مزاج القلب، ورجاء يتصل بحقيقة لا تتبدل.

خيرٌ لك، لا خيرٌ في مقياس الناس

قال تعالى: ﴿خَيْرٌ لَّكَ﴾، فجعل الخير متعلقاً بالنبي ﷺ، لا بما يظنه الناس خيراً بحسب مقاييسهم. وما أكثر الفرق بين خير الإنسان كما يراه بعلمه المحدود، وخيره كما يعلمه الله.

قد يرى الخير في الراحة، ويكون بناؤه في المشقة.

ويراه في القبول السريع، ويكون حفظ إخلاصه في تأخره.

ويراه في بقاء شخص أو مكان، ويكون اتساع حياته في فراقه.

ويراه في انتصار عاجل، وتكون حكمة الرسالة في طريق أطول يصنع رجالها وأخلاقها ووعاها.

وليس معنى ذلك أن الألم يتحول في ذاته إلى شيء محبوب، أو أن كل خسارة يمكن للإنسان أن يسميها خيراً من تلقاء نفسه. بل المعنى أن علم الله بالخير أوسع من إدراكنا، وأن المؤمن يفوض إليه تقدير المآل بعد أن يأخذ بالأسباب المشروعة ويسعى في دفع الضرر.

فكم من إنسانٍ طلب شيئاً لأنه لم ير إلا بريقه القريب، ولو ناله لفتح على حياته أبواباً من الشقاء. وكم من أمرٍ بكى لفواته، ثم عرف بعد زمن أن الله صرفه عنه بلطفه. وكم من بابٍ أغلق في وجهه، فظل يضربه طويلاً، بينما كان الفتح الحقيقي ينتظره في اتجاه آخر.

لكن بعض وجوه الخير لا تنكشف في الدنيا قط. وهنا تحرس عقيدة الآخرة القلب من الاعتراض؛ لأننا لا نحصر حكمة الله في القدر الذي أدركناه من

نتائج الأحداث. قد تبقى أشياء مؤلمة بلا تفسير تفصيلي حتى نلقى الله، ويكفي المؤمن أن يعلم أن الحساب لم ينته، وأن العدل لم يقل كلمته الأخيرة بعد.

حين يكون المستقبل ملكًا للوعد

عادةً ما ينظر القلق إلى المستقبل بوصفه منطقةً تمتلئ بالتهديدات. إنه يأخذ آلام الماضي، ثم ينسخها على الأيام التي لم تأت. فإذا خُذِل الإنسان مرةً توقع الخذلان في كل علاقة، وإذا أخفق في تجربة رأى الإخفاق ينتظره في كل محاولة، وإذا امتد به المرض تصور أن بقية حياته لن تكون إلا صورةً منه.

القلق لا يعرف المستقبل، لكنه يسكنه بمخاوفه.

أما الآية فتسترد المستقبل من يد الخوف وتضعه في أمان الوعد: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

ليس المستقبل أرضًا يملكها القلق، بل غيبٌ يملكه الله.

والمؤمن لا ينكر احتمالات الألم، لكنه يرفض أن يجعلها الحقيقة الوحيدة الممكنة. يعرف أن ربه قد يبدّل الأحوال، وأن يخلق بعد العسر يسرًا، وبعد الانكسار قوةً، ومن الطريق المسدود منفذًا لم يكن في الحساب. ثم يعلم فوق ذلك كله أن نهاية أمره، إن ثبت على الإيمان، ليست في الدنيا أصلًا، بل في دارٍ لا يدخلها حزن ولا يمس أهلها نصب.

وهذا لا يحول المسلم إلى شخص يعيش خارج الواقع، وإنما يمنحه القدرة على مواجهته دون أن يعبده. فالأسباب مهمة، لكنها ليست آلهة. والواقع مؤثر،

لكنه ليس صاحب الكلمة الأخيرة. والتاريخ يضغط على الإنسان، لكنه لا يستطيع أن ينتزع منه ما وعده الله في الآخرة.

لا تحكم على القصة من فصلها المؤلم

لو قرئت سيرة النبي ﷺ في عام الحزن وحده، لرأى القارئ فقدًا متتابعًا: وفاة خديجة رضي الله عنها، ورحيل أبي طالب، واشتداد أذى قريش، ثم الخروج إلى الطائف وما جرى هناك من صد وإيذاء. ولو وقف النظر عند ذلك الفصل، لظن أن الدعوة تنحسر وأن الأرض تضيق بصاحبها.

لكن السيرة لم تنته هناك.

من وراء ذلك الألم كانت بيعة العقبة، ثم الهجرة، ثم بناء الدولة، ثم بدر، ثم الفتح، ثم دخول الناس في دين الله أفواجًا. ولم تكن هذه التحولات خيالًا نفسيًا صنعه النفاؤل، بل قدرًا كان يمضي في الغيب بينما كانت العين لا ترى إلا وطأة اللحظة.

ولو قرئت قصة يوسف عليه السلام من داخل الجب وحده، لكان المشهد طفلًا ألقى في ظلمة الغدر. ولو قرئت من داخل السجن، لظهر كأن النجاة الأولى لم تكن إلا انتقالًا إلى قيد جديد. لكن الجب لم يكن خاتمة، والسجن لم يكن تعريفًا نهائيًا لحياته، بل كانا مرحلتين في طريق لم ينكشف معناه الكامل إلا بعد سنين.

وكذلك موسى عليه السلام خرج من مصر خائفًا يترقب، لكن الخروج الذي بدا نجاةً فرديةً من القتل كان طريقًا إلى الإعداد للرسالة. وأم موسى ألفت

رضيعها في اليم، وكان ظاهر الفعل فراقاً مخيفاً، بينما كان باطن التدبير ردّاً له إليها وتمهيداً لما سيأتي.

إن القصص القرآني يربي فينا أدب الانتظار؛ يعلمنا ألا نضع الخاتمة بأيدينا ونحن في منتصف الطريق. فما نراه الآن قد يكون صحيحاً في وصف اللحظة، لكنه غير كافٍ للحكم على المآل.

لسنا مطالبين بأن نسمي الجب قصرًا، ولا السجن حريةً، ولا الفراق لقاءً؛ فالقرآن لا يزور أسماء الأشياء. لكنه يعلمنا أن الجب ليس كل قصة يوسف، وأن البحر ليس كل قصة موسى، وأن فتور الوحي ليس كل قصة الرسالة.

الخيرية ليست دائماً راحة

حين يسمع الإنسان كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ قد يذهب ذهنه إلى الأيسر والأكثر راحةً والأقرب إلى رغباته. لكن الخير في الميزان الإلهي أعمق من اللذة العاجلة. قد يكون الشيء أريح، لكنه يضعف الروح، وقد يكون أشق، لكنه ينضجها ويرفع مقامها.

خرج النبي ﷺ من مكة مهاجرًا، وكان ترك الوطن ألمًا؛ لكنه كان طريقًا إلى قيام المجتمع الذي يحمل الرسالة. وخاض المؤمنون بدرًا وهم قلة، ولم تكن المواجهة راحة؛ لكنها كانت فرقانًا بين الحق والباطل. وتحمل النبي ﷺ من أعباء الرسالة ما تتصدع له النفوس، وكان ذلك سبيله إلى أعلى المقامات.

فالخير لا يعني أن الطريق سيخلو من الأشواك، بل أن الأشواك نفسها لن تمنع الطريق من بلوغ غايته.

وقد يكون الخير في أن يعطيك الله ما سألت، وقد يكون في أن يصرفه عنك.
وقد يكون في التعجيل، وقد يكون في الإبطاء. وقد يكون في أن يغيّر ظرفك،
وقد يكون في أن يغيّر ك أنت داخل الظرف حتى تصبح أقدر على العبور.

والمؤمن لا يطالب نفسه بأن يستلذ كل ما يقع، لكنه يدرّبها على التفريق بين
الآلم والشر المطلق. ليس كل مؤلم شرًا محضًا، وليس كل لذّذ خيرًا خالصًا.
والميزان النهائي ليس شعور اللحظة، بل ما يترتب على الأمر في الدين
والدنيا والآخرة.

الآخرة: إنقاذ المعنى من عبث الدنيا

من دون الآخرة تبقى أسئلة كثيرة مفتوحةً على العبث: ما مصير حقوق لم
تُسترد؟ ودموع لم يرها أحد؟ وأعمال عظيمة مات أصحابها قبل أن يشاهدوا
ثمرتها؟ وأطفال غادروا الدنيا قبل أن ينالوا نصيبًا من أفراحها؟ ومظلومين
انطفأت أعمارهم والظالمون ما يزالون في قصورهم؟

لو كانت الدنيا هي المحكمة الأخيرة، لكانت صفحات كثيرة من التاريخ ناقصة
العدالة. ولو كان القبر نهاية الإنسان، لأصبحت تضحيات خفية كثيرة بلا
جزاء ظاهر. لكن الآخرة تعيد لكل شيء وزنه الحقيقي؛ فلا تضيع ذرة خير،
ولا يفلت مثقال ذرة من شر.

ولهذا لم تكن عقيدة الآخرة هامشًا في بناء الوعي الإسلامي، بل هي التي تمنع
الواقع الناقص من أن يتحول إلى حكم فلسفي على عدل الوجود. الدنيا ليست
موضع استيفاء الجزاء كله؛ إنها دار ابتلاء وعمل، وفيها عدل يظهر وعدل
يتأخر، وحق يُسترد وحق يبقى إلى يوم لا تظلم فيه نفس شيئًا.

إن الإنسان الذي يؤمن بالآخرة يستطيع أن يقاوم الظلم دون أن ينهار إن لم يشهد نهايته، وأن يفعل الخير دون أن يجعل اعتراف الناس شرطاً لاستمراره، وأن يصبر على خسارة لا يعوضها شيء في الدنيا؛ لأنه يعلم أن الوجود لا ينتهي عند حدود ما تراه العين.

وهذا لا يصنع إنساناً مستسلماً للظلم، بل يحرره من هيمنة الظالم مرتين: مرة حين يدفع ظلمه بما يستطيع، ومرة حين يرفض أن يجعل عجزه المؤقت عن استرداد حقه دليلاً على ضياع الحق عند الله.

خير الرسالة المتصاعد

كان كل طور آتٍ من أطوار الرسالة يحمل للنبي ﷺ اتساعاً جديداً في تحقيق العبودية وتبليغ الوحي. نزلت الآيات بعد فتورها، وتكاثر المؤمنون بعد قتلهم، ووجدت الدعوة في المدينة أرضاً تبني عليها مجتمعها، ثم عادت مكة إلى التوحيد بعد طول صدّها عنه.

لكن خير الآتي لم يكن متمثلاً في الانتصارات الظاهرة وحدها، بل في اكتمال الدين وأداء الأمانة وبلوغ الرسالة ما أراد الله لها. فالقيمة الكبرى في سيرة النبي ﷺ ليست أنه انتقل من الضعف إلى القوة بمعناها السياسي المجرد؛ بل أن القوة نفسها ظلت خادمة للحق، وأن النصر لم يفسد رحمته، وأن الذين آذوه يوم كان مستضعفاً لم يجدوا عند قدرته عليهم انتقاماً للنفس.

وهنا تظهر الصلة بين هذه الآية وخاتمة السورة. فالخير الذي سيأتي ليس امتلاكاً شخصياً يُغلق النبي ﷺ أبوابه عليه، بل قدرة أوسع على الرحمة، وإيواءً لليتيم، ورفقً بالسائل، وتحديثٌ بنعمة الله.

فالخير إذا لم يزد صاحبه عبوديةً ورحمةً قد يتحول في يديه فتنة.

من ضيق «الآن» إلى سعة «ثم»

ثمة فرق بين من يعيش اللحظة على أنها مصيره، ومن يعيشها على أنها مرحلة. الأول تنغلق عليه جدران الحاضر، والثاني يتعامل مع الحاضر بجدية دون أن يمنحه صفة الأبد.

والقرآن كثيرًا ما ينقل المؤمن من «الآن» إلى «ثم»: من العسر إلى اليسر، ومن الابتلاء إلى الجزاء، ومن العمل إلى اللقاء، ومن الحياة القصيرة إلى الخلود. ولا يفعل ذلك ليصرفه عن واجبه الراهن، وإنما ليمنع الحاضر من ابتلاع وعيه كله.

فالذي يعرف أن الآخرة خير لا يزدري الدنيا، بل يستعملها فيما يبلغه ذلك الخير. يعمل، ويبني، ويعدل، ويقاوم، ويرحم؛ لكنه لا يبيع آخرته ليحصل على نصيب عاجل، ولا ينكسر نهائيًا إذا فاته شيء من حظوظها.

إن الدنيا عنده طريق لا وطن أبدي، وأمانة لا ملك مطلق، وموسم زرع لا يوم حصاد كامل.

وهذه الرؤية تمنحه قدرًا عجيبيًا من الحرية. يستطيع أن يقول «لا» حين يشتري الآخرون رضا الناس بدينهم، وأن يثبت حين يغريه الباطل بمكسب سريع، وأن يواصل العمل حين لا يرى ثمرةً قريبة؛ لأنه لا يحصر الربح في ميزان اللحظة.

لا تجعل الماضي سقفاً لعطاء الله

قد يكون الماضي جميلاً حتى يصبح التعلق به نوعاً من العجز عن استقبال الجديد. يظل الإنسان ينظر وراءه ويقول: لو عادت تلك الأيام، لو بقي أولئك الناس، لو استعدت تلك الحال. وربما كانت في الماضي نعم حقيقية تستحق الوفاء، لكن فضل الله ليس محصوراً فيما عرفناه منه.

إن الذي أعطى أمس لم تنفذ خزائنه.

والذي فتح باباً يستطيع أن يفتح غيره.

والذي أخرج من العدم بداياتنا لا يعجزه أن يخلق بعد الانكسار بدايات جديدة. ولا تعني البداية الجديدة محو الوفاء لما مضى؛ فبعض الأشياء لا تُنسى، وبعض الفقد يبقى له موضعه النبيل في القلب. لكن الوفاء شيء، وتحويل الماضي إلى قبرٍ نقيم فيه شيء آخر. الله لا يطلب من الإنسان أن يخون ذكرياته، بل ألا يجعلها حجاباً عن بقية فضله.

كانت أيام نزول الوحي الأولى عظيمة، لكن ما سيأتي للنبي ﷺ أعظم امتداداً وأكمل أثراً. لم تكن العودة إلى وراء هي الوعد؛ كان الوعد أن يمضي إلى الأمام تحت عناية ربه.

الرجاء الذي يصنع العمل

قد يُساء فهم الرجاء فيظنه بعض الناس انتظاراً ساكناً، كأن المؤمن يكتفي بأن يقول: القادم خير، ثم يعفي نفسه من السعي. لكن النبي ﷺ الذي تلقى هذا الوعد

ظل يبذل أقصى ما يستطيع: يدعو، ويربي، ويخطط، ويهاجر، ويعقد العهود،
ويأخذ بأسباب القوة، ويواجه الأخطار.

الوعد لم يخدر حركته؛ بل حررها من اليأس.

فالعامل بلا رجاء يتحول مع الزمن إلى عبء، والرجاء بلا عمل يتحول إلى
أمنية. أما الإيمان فيجمع بينهما: يبذل الإنسان ما يقدر عليه، ثم لا يجعل
النتيجة إلهاً يعبد، ولا توقيت الثمرة شرطاً لصدق البذل.

والذي يعلم أن الآخرة خير لا يحتقر العمل الصغير؛ لأنه قد يجد أثره هناك
عظيمًا. كلمة حق لم يسمعها إلا قليل، ويد امتدت إلى ضعيف، وفكرة زرعت
في عقل طفل، وكتاب لم يلق في حياة مؤلفه ما يستحقه، وصبر لم يصفق له
أحد؛ كل ذلك محفوظ في ميزان لا تضيع لديه الأعمال.

وقد تكون أعظم ثمار الإنسان قد بدأت بعد غيابه عن الدنيا، بينما كان في
حياته يظن أن جهده لم يبلغ أحدًا. فليست رؤيتنا للنتائج شرطاً لوجودها، ولا
معرفة الناس بأعمالنا شرطاً لقبولها.

ما الذي يبقى حين يسقط كل شيء؟

قد يفقد الإنسان الصحة والمال والمكانة وبعض من يحب، وقد تضيق عليه
الأرض بما رحبت، فلا يبقى له من عالمه القديم إلا أشياء قليلة. عندها تصبح
الآية أكثر من معنى جميل؛ تصبح موضعاً تستند إليه الروح: ﴿وَلَا خَيْرَ لَكَ
لَكَ مِنَ الْوَالِي﴾.

إنها تقول إن المؤمن لا يمكن أن يخسر كل شيء ما دام إيمانه بالله باقياً. يستطيع العالم أن ينتزع منه أشياء كثيرة، لكنه لا يملك أن ينتزع الوعد. يستطيع الظالم أن يضيق عليه الأرض، لكنه لا يستطيع أن يغلق أبواب الآخرة. يستطيع المرض أن يضعف جسده، لكنه قد يجعل كل لحظة صبر رصيذاً ينتظره. ويستطيع الموت أن يفرق بينه وبين من يحب، لكنه ليس قادراً على إلغاء اللقاء الذي وعد الله به عباده المؤمنين.

هنا لا تعود الآخرة فكرةً تكمل التصور العقدي، بل تصبح وطن المعنى الأخير؛ المكان الذي تنجو فيه الأشياء الجميلة من الفناء، وتكتمل فيه العدالة التي بدأ الإيمان بها في الدنيا.

الخير الذي يفضي إلى العطاء

لم تترك السورة كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ عامةً من غير أن تتبعها بصورة من صور تحققها، فجاءت الآية التالية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

فالخير الآتي ليس معنىً بارداً، بل عطاء. وليس عطاءً محدوداً سُمي وانتهى، بل عطاءً تركته الآية مفتوحاً، ثم حدّدت أثره في القلب: ﴿فَتَرْضَى﴾.

مرةً أخرى يعود اسم الربوبية: ﴿رَبُّكَ﴾.

الرب الذي لم يودعك هو الذي سيعطيك.

والذي حفظك في الماضي لم يكتفِ بنفي الخوف عن حاضرك، بل ادخر لك من الخير ما يرضيك.

وهكذا تتحرك السورة من نفي الفقد إلى إثبات العطاء، ومن إسكات الشائعة إلى فتح خزائن الوعد، ومن ليلٍ سجا إلى رضا يملأ القلب.

لم تقل الآية: ولسوف يعطيك ربك ما فقدت، لأن عطاء الله أوسع من مجرد استعادة المفقود.

ولم تقل: يعطيك ما تطلب، لأن علمه بخير عبده أوسع من طلبه.

ولم تسمّ العطاء، لأن ما أعد للنبي ﷺ لا تحيط به كلمة واحدة.

إنها لا تعدّه بشيء فقط، بل تعدّه بغاية العطاء كله:

أن يعطيه ربّه حتى يرضى.

الفصل الرابع

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾

عطاء لا تقف غايته عند اليد، بل تبلغ القلب

بلغت المواساة في هذه الآية ذروتها.

بدأت السورة بمشهد الضحى والليل، ثم نفت أن يكون فتور الوحي وداعاً أو قلى، ثم فتحت للنبي ﷺ أفق الآخرة وخيرية القادم، وها هي الآن لا تكتفي بوعدٍ عام، بل تقرب العطاء من القلب حتى تكاد الروح تراه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

إنها آية قصيرة، لكن كل كلمة فيها تحمل طمأنينةً مستقلة: اللام تأكيد، و«سوف» استقبال ممتد، و﴿يُعْطِيكَ﴾ عطاء غير محدود بمذكور، و﴿رَبُّكَ﴾ رعاية لا تنقطع، و﴿فَتَرْضَىٰ﴾ أثر يبلغ أعماق النفس، فلا يقف الفضل عند ظاهر النعمة.

وكأن السورة تقول للنبي ﷺ: ليس القادم مجرد انتهاء للوحشة، بل فيض من العطاء؛ وليس المطلوب أن تصبر على فراغ لا يعقبه شيء، بل أن تثق بوعد ربك حتى يأتيك من فضله ما يملأ قلبك رضا.

وعدّ مشدودٌ بالتوكيد

قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ﴾، فاجتمع في صدر الآية حرفا توكيد واستقبال: اللام، و«سوف». وليس هذا من حشو العبارة؛ فالكلمات القرآنية تأتي بقدر، وكل زيادة في المبنى وراءها زيادة في المعنى أو توكيد له.

كان الحاضر يحمل في ظاهره فتورًا، فجاء الوعد مؤكدًا لئلا يقيس النبي ﷺ المستقبل على سكون اللحظة. وما تراه العين الآن ليس حاكمًا على ما سيأتي؛ فالله الذي يملك الحاضر يملك الغد، وقد كتب فيه عطاءً لم يظهر موعده بعد.

و«سوف» تمد أمام القلب مساحةً من الزمن. إنها لا تعيّن لحظة العطاء، ولا تستجيب لعجلة النفس بأن تضع بين يديها جدولًا تفصيليًا، لكنها تمنحها ما هو أثبت من معرفة الموعد: **ضمان الوعد**.

نحن نطلب غالبًا أن نعرف «متى»، بينما يربينا الإيمان على أن السؤال الأهم هو: «مَن وعد؟».

فإذا كان الواعد هو الله، لم يضرّ الوعد أن يخفى موعده. بل قد يكون إخفاء الموعد جزءًا من التربية، حتى لا يتعلق القلب بالزمن أكثر من تعلقه برب الزمن، ولا يجعل ثقته رهينة اقتراب العلامات التي يراها.

إن اليقين لا يحتاج دائمًا إلى أن يرى الطريق كله؛ يكفي أن يعرف مَن يقوده.

﴿يُعْطِيكَ﴾: فعلٌ لم يُذكر مفعوله

لم تقل الآية: ولسوف يعطيك ربك النصر، أو الملك، أو الفتح، أو الشفاعة، أو المنزلة الرفيعة. قالت: ﴿يُعْطِيكَ﴾، وسكتت عن تعيين ما يُعطى.

وحذف المفعول هنا يفتح المعنى ولا يغلقه. فلو سُمِّي شيء واحد لتوجَّه النظر إليه، وربما ضاق الوعد بحدوده في وعي القارئ، أما حين أُطلق العطاء فقد اتسع لكل ما منحه الله لنبيه ﷺ في الدنيا والآخرة: استمرار الوحي، وكمال الدين، وظهور الدعوة، ونصرة المؤمنين، والذكر الحسن، والمقام المحمود، والحوض، والكوثر، والشفاعة بإذن الله، والدرجة الرفيعة التي أعدها له في جنات النعيم.

إنها عطايا لا تستوعبها مفردة واحدة.

وكلما بدا للمؤمن أنه أحاط بمعنى الآية، فتح له امتدادها بابًا آخر. فقد أُعطي النبي ﷺ قرآنًا لا ينقطع تلاوته، وأمةً تمتد عبر القرون، ورسالةً لم تُحصر في جنس ولا أرض، وصلاةً وسلامًا يتجددان على لسان المؤمنين، ومحبةً أودعها الله في القلوب، ثم أعد له في الآخرة ما هو أعظم من كل ما ظهر في الدنيا.

ومن هنا كانت عظمة الإطلاق: إن عطاء الله لنبيه ﷺ أكبر من أن يُختصر في حادثة نصر، أو فتح مدينة، أو كثرة أتباع. هذه كلها من العطاء، لكنها ليست حدّه الأخير.

بين العطاء والتعويض

قد يقرأ الإنسان الوعد بعين الفقد، فيظن أن العطاء لا يكون إلا إعادة لما ضاع. إذا فقد مالا، لم يتصور الجبر إلا بمال مثله. وإذا خسر مكانا، لم يرَ العوض إلا بالعودة إليه. وإذا غاب عنه شخص عزيز، ظل يطلب من الحياة أن تعيد الصورة التي انكسرت.

لكن العطاء الإلهي أوسع من التعويض المتخيّل.

فإنه قد لا يعيد الشيء بصورته الأولى، لكنه يمنح القلب من المعنى والقوة والقرب ما يجعله قادرا على مواصلة الحياة من غير أن يخون وفاءه لما فقد. وقد يفتح للإنسان بعد بابٍ أغلق أبوابا لم يكن يعرفها. وقد ينزع منه شيئا أحبه، ثم يكشف له مع الزمن أن تعلقه به كان يحجبه عن أفق أوسع.

وليس كل مفقود يُعوّض في الدنيا؛ فبعض الفجوات تبقى، وبعض الأحران لا تمحوها الأيام. لكن المؤمن لا يحصر العطاء في هذه الدار، ولا يجعل عدم التعويض العاجل دليلا على ضياع حقه عند الله. قد يدخر الله الجبر كاملا ليوم لا يخشى الإنسان بعد عطائه فقدًا جديداً.

إننا نريد غالبًا جبرًا يعيد الماضي، بينما يخلق الله أحيانًا جبرًا يؤسس مستقبلا.

﴿رَبُّكَ﴾ مرة أخرى

هذه هي المرة الثانية التي يجيء فيها وصف الربوبية في خطاب المواساة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾.

في الأولى نفى للخوف، وفي الثانية إثبات للرجاء. في الأولى تأمين للقلب من وهم الانقطاع، وفي الثانية فتح لباب العطاء. والجامع بينهما أن الرب الذي نفى أن يودع نبيه هو نفسه الذي تكفل بأن يعطيه.

وإعادة كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ تمنع النفس من التعلق بالعطاء مجردًا عن معطيه. فما قيمة النعمة إذا حُجبت صاحبها عن المنعم؟ وكم من إنسان أخذ العطية ونسي اليد التي أسدتها إليه، فصارت النعمة في حياته حجابًا بدل أن تكون دليلًا!

لكن الآية لم تقل: ولسوف تُعطى فتراضى، بالبناء للمجهول، وإنما أظهرت الفاعل بوصفه الذي يربي ويدبر: ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾. فالجمال ليس في مقدار العطاء وحده، بل في كونه صادرًا عن الرب؛ عن علمٍ بما يصلح، وحكمةٍ في التوقيت، ورحمةٍ في التقدير.

وقد يكون الرضا بالله قبل الرضا بالعطاء هو الباب إلى تذوق العطاء نفسه.

لماذا لم تقل الآية: فَتَفْرَحْ؟

الفرح انفعال جميل، لكنه قد يكون سريعًا ومتعلقًا بوصول شيء بعينه. أما الرضا فأعمق وأثبت؛ إنه سكون القلب إلى ما أكرمه الله به، وامتلاؤه حتى لا يبقى فيه اعتراض على ما قسم له.

قالت الآية: ﴿فَتَرْضَى﴾، لأن العطاء المقصود لا يمر على ظاهر الحياة وحده، بل يبلغ قرار القلب.

قد يملك الإنسان كثيرًا ولا يرضى، لأن النفس إذا لم تتعلم حد الكفاية حولت كل عطاء إلى بداية طلب جديد. وكلما حصلت على شيء أفسدته بالمقارنة، ثم مدت عينها إلى ما عند غيرها. فهي لا تعاني دائمًا من قلة ما أُعطيت، بل من عجزها عن رؤية ما أُعطيت.

وقد يملك آخر قليلًا، لكن قلبه غني؛ يرى النعمة، ويعرف المنعم، ويستخدم ما لديه في الخير، فلا يذل نفسه بالمقارنة ولا يحول الطموح إلى اعتراض.

فالرضا ليس حاصل جمع الأشياء.

ربما امتلأت اليد وبقي القلب فارغًا.

وربما ضاقت اليد واتسع القلب بالله.

لكن رضا النبي ﷺ الموعود هنا متصل بعطاء عظيم مخصوص، يبلغه في الدنيا والآخرة، ويليق بمقامه عند ربه. وليس لنا أن نسوي بين هذا الوعد الخاص وبين ما يرجوه كل إنسان لنفسه؛ فخصوصية الخطاب محفوظة، وإن بقي للمؤمن من ضلاله معنى: أن يسأل الله من فضله، وأن يثق بسعة عطائه، وأن يعلم أن السعادة لا تكتمل بوصول النعمة ما لم يُرزق القلب حسن تلقيها والرضا بها.

الرضا ليس إلغاءً للطموح

يُساء فهم الرضا حين يُجعل مرادفًا للخمول، أو حجةً لترك السعي، أو وسيلةً لإقناع المظلوم بأن يقبل الظلم ولا يطلب حقه. وهذا بعيد عن هدي القرآن.

رضا المؤمن عن الله لا يعني رضاه بالمعصية، ولا استسلامه للفساد، ولا تنازله عن واجبه في الإصلاح. قد يرضى بقضاء الله من جهة وقوعه بعلمه وقدره، ثم يعمل على تغيير المنكر امتثالاً لأمره. وقد يصبر على ما لا يستطيع دفعه، لكنه لا يزيّنه ولا يسمي القهر عدلاً.

وقد كان النبي ﷺ أَرْضَى الناس بربه، ومع ذلك بذل غاية الجهد في الدعوة، وغير الواقع، ودافع عن المؤمنين، وأقام الحق، واتخذ لكل مرحلة أسبابها. لم يكن رضاه انسحاباً من العالم، بل كان قوةً تحرره من الجزع وهو يعمل فيه.

الرضا لا يطفئ الإرادة، بل يطهرها من الاعتراض على الله.

ولا يوقف السعي، بل يمنعه من أن يتحول إلى عبودية للنتيجة.

ولا يطالب المظلوم بأن يحب الظلم، بل يحفظ قلبه من الانهيار إن تأخر الإنصاف.

إنه طمأنينة في الداخل، لا موت في الحركة.

عطاء الرسالة

من أعظم ما أُعطيهِ النبي ﷺ أن جعله الله حامل خاتم رسالاته، وأنزل على قلبه القرآن. وهذا العطاء أثقل من أن يُقرأ بوصفه تشريعاً مجرداً؛ فقد كان تكليفاً ومسؤوليةً ومكابدة. وكلما اتسعت الرسالة اتسع حملها.

أُعطي الوحي، فتحمل أذى التكذيب.

وأُعطي الأمة، فحمل همّ هدايتها.

وأعطي الفتح، فواجه امتحان القوة.

وأعطي المحبة في القلوب، فظل عبداً لا ينسب الفضل إلى نفسه.

وهذا يعلمنا أن بعض العطايا تأتي في صورة أعباء. قد يفتح الله للإنسان باب تأثير، فيحسبه مجداً خالصاً، بينما هو أمانة سيُسأل عنها. وقد يمنحه علماً، فيكون حق ذلك العلم أن يعلم ويصدق بالحق. وقد يرزقه قلماً مؤثراً، فلا يعود قلمه ملكاً لنزواته وحدها؛ بل يصير مسؤولاً عن المعاني التي يزرعها في وعي الناس.

ليست النعمة ما يريحك فقط؛ قد تكون ما يحملك واجباً أعظم.

وليس شكرها أن تتحدث عنها وحدها، بل أن تؤدي حقها.

عطاء النصر دون أن تفسد النفس

لقد وعد الله نبيه ﷺ وأعطاه، حتى دخل مكة التي خرج منها مستضعفاً. وهذه لحظة تكشف معدن الإنسان؛ فكثيرون يحتملون الضعف، لكنهم لا يحتملون القوة. يرفعهم النصر فوق خصومهم، ثم يوقظ فيهم آلام الماضي رغبةً في الانتقام.

أما النبي ﷺ فقد دخل مكة متواضعاً لله، لم تجعله القدرة نسخةً من الذين آذوه. لقد تغير موقعه، ولم يتغير خُلقه. صار قادراً على العقوبة، فظهر كمال العفو. وحين اجتمع تحت يده الذين حاربوه وأخرجوه، لم يتحول الجرح القديم إلى قهر جديد.

هنا نفهم لماذا تنتهي سورة الضحى بقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾. فالعطاء ليس امتحاناً أقل من الحرمان. حين كنت ضعيفاً كان الامتحان: هل تصبر؟ وحين أصبحت قوياً صار الامتحان: هل ترحم؟

إن النصر الذي يحول المظلوم إلى ظالم ليس نصراً كاملاً، والغنى الذي يجعل الفقير القديم يحتقر الفقراء خسارة مستترة، والمكانة التي تنسي الإنسان أيام ضعفه قد تكون سقوطاً في ثياب الصعود.

أعطى الله نبيه ﷺ، فازداد تواضعاً وعبوديةً ورحمة. وهذا هو الرضا النبيل: ألا تتحول النعمة إلى انتفاخ في النفس، بل إلى ازدياد في الحمد وأداء الأمانة.

المقام المحمود

ومن عطاء الله لنبيه ﷺ في الآخرة المقام المحمود الذي وعده به، والشفاعة العظمى بإذن ربه، حين يبلغ الخلق من الكرب ما يبلغون، فيكرمه الله بما لا يكرم به أحداً سواه.

وليس من دقة التفسير أن نحصر قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ في نوع واحد من العطاء، فاللفظ أوسع، لكنه يشمل ما ثبت له ﷺ من خصائص وكرامات في الآخرة. وقد كان ﷺ شديد الرحمة بأمتة، حريصاً على هدايتها ونجاتها، حتى وصفه الله بقوله:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

ومع هذا ينبغي أن يظل الكلام في الشفاعة منضبطاً بنصوص الوحي: فهي لله جميعاً، ولا تقع إلا بإذنه ورضاه؛ فلا تُتخذ ذريعةً للأمن من مكر الله، ولا تُفصل عن التوحيد والطاعة. محبة النبي ﷺ ليست تعلقاً عاطفياً مجرداً، بل اتباع لما جاء به، وتعظيم لسننته، ورجاء لفضل الله الذي أكرمه بالشفاعة.

هل تعني الآية أن كل ما نريده سيُعطى لنا؟

الخطاب في أصله للنبي ﷺ، ووعد مخصص بمقامه. ولذلك لا يصح أن يأخذ كل قارئ الآية ويجعلها تعهداً شخصياً بتحقيق جميع رغباته في الدنيا. فليس كل ما نطلبه خيراً لنا، ولسنا معصومين في أمانينا، وقد ندعو بشيء لو كُشف لنا مآله لاستعدنا بالله منه.

لكن للمؤمن نصيب من هداية الآية: أن يعرف سعة فضل الله، وأن يحسن الظن بربه، وأن يدعو ويرجوه، وأن يرضى بما يقدره له بعد الأخذ بالأسباب. وقد وعد الله عباده المؤمنين في نصوص كثيرة بجزاء الآخرة ورضوانه، وهذا أعظم من كل مطلوب ينقطع بانقطاع الدنيا.

الإيمان ليس عقداً يضمن أن تسير الحياة كما نرسمها، بل عهد عبودية يضمن أن من سار إلى الله لن يضيع عنده.

قد لا تُعطى ما حددته، لكنك لا تُحرم خيراً كتبه الله لك.

وقد لا يأتي الجبر بالصورة التي طلبتها، لكنه قد يأتي أعمق مما تصورت.

وقد لا يتحقق العدل كاملاً أمام عينيك، لكنه لا يفلت من يوم الحساب.

العطاء الذي لا يرى

نحن نعد عادةً ما دخل اليد عطاءً، ونغفل عما دُفع عنا. نحصي الأبواب التي
فُتحت، ولا نعرف عدد الأبواب التي أغلقها الله رحمةً بنا. نرى المال والصحة
والنجاح، لكننا لا نرى المصائب التي صرفت، والطرق التي لو سلكنها لهلك
منا شيء، والرغبات التي لم تتحقق فحمتنا من أنفسنا.

وفي حياة كل إنسان مساحةٌ هائلة من العطاء المجهول.

كم مرةً تأخر فنجا؟

وكم مرةً منع فحفظ؟

وكم مرةً انصرف عنه أمرٌ بكى لفواته، ثم ظهرت له بعض وجوه الرحمة
فيه؟

وكم من شر لم يقع أصلاً، ولذلك لم يشعر صاحبه بالنعمة؛ إذ ليس للمصيبة
المصروفة أثرٌ ظاهر يُذكره باللطف؟

نحن نشكر الله غالباً على ما وصل، وننسى أن من عطائه ما لم يصل.

غير أن هذا المعنى لا يبيح لنا أن نجزم أمام كل مبتلى فنقول له: حدث لك كذا
من أجل كذا. فحکم الله التفصيلية غيب لا نحيط به. الأدب أن نقول: الله في
أقداره حكمة، وقد يظهر لنا بعضها ويخفى أكثرها، من غير أن ننسب إليه
تفسيراً لم يخبرنا به.

الرضا عطاءً آخر

تقول الآية: ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. والعطاء الأول هو ما يمنحه الله، أما العطاء الثاني المستتر فهو القلب القادر على الرضا.

فكم من نعمة وصلت إلى إنسانٍ ولم تصل إلى روحه! يملكها لكنه لا يشعر بها؛ لأن المقارنة أفسدت عليه رؤيتها، أو لأن الاعتياد محا بريقها، أو لأن عينه لا تقع إلا على ما ينقصه.

إن القدرة على إدراك النعمة نعمة.

والقدرة على الاستمتاع بالحلال نعمة.

والقدرة على قول «كفاني» حين يركض العالم خلف المزيد نعمة.

والقدرة على أن تطمح دون أن تسخط نعمة.

والقدرة على أن تحزن دون أن تعترض على الله نعمة.

فليس الفقر دائماً في قلة الموجود، بل قد يكون في غياب الرضا عن الموجود. وليس الغنى دائماً في كثرة المملوك، بل قد يكون في تحرر القلب من عبوديته.

ومع ذلك فالرضا لا ينبغي أن يُستخدم خطاباً بارداً في وجه الفقير والمظلوم؛ فيطالب المحتاج بأن يرضى بينما يُعفى القادر من واجب إعانته، أو يُوعظ المقهور بالصبر بينما يُترك القاهر آمناً. خاتمة السورة نفسها تهدم هذا التدين الزائف: فبعد الحديث عن الإغناء يأتي حق السائل، وبعد ذكر الإيواء يأتي حق اليتيم.

الرضا عبادة القلب، والعدل واجب المجتمع؛ ولا يجوز أن نجعل الأول ذريعةً لإسقاط الثاني.

حين يصبح العطاء مسؤولية

كل نعمة في الرؤية القرآنية تتحول إلى سؤال أخلاقي:

ماذا فعلت بما أُعطيت؟

إذا أُعطيت علمًا، فمن اهتدى به؟

وإذا أُعطيت مالًا، فمن أمن به من الحاجة؟

وإذا أُعطيت مكانةً، فمن حفظت كرامته بها؟

وإذا أُعطيت تجربةً مؤلمةً، فهل صنعت منك رحيماً أم قاسياً؟

وإذا أُعطيت قلمًا، فهل فتحت به نافذةً للوعي أم جعلته مرآةً لذاتك؟

لهذا لم تنته السورة عند ﴿فَتَرَضَى﴾، مع ما في الرضا من جمال. فالقرآن لا يريد قلبًا راضيًا في عزلة عن آلام الناس، بل يريد أن يتحول ما ناله من عناية إلى سلوك: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

العطاء الحقيقي لا يُعرف فقط بما أحدثه في سعادتك، بل بما أحدثه في أخلاقك.

إذا زادك المال قسوةً فقد ملكت شيئًا وخسرت نفسك.

وإذا زادتك المعرفة كبرًا فقد حفظت المعلومات وفقدت الحكمة.

وإذا أورتك النجاة احتقاراً لمن لم ينبج، فما فهمت معنى النجاة.

أما إذا جعلك الفضل ألين قلباً، وأخفض جناحاً، وأسرع إلى الضعفاء، فقد بلغ العطاء موضعه الصحيح.

الوعد قبل استدعاء الماضي

من روائع ترتيب السورة أنها قدمت وعد المستقبل على تعداد نعم الماضي: ﴿وَلَا خِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

ثم قالت: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ...﴾.

كأن المستقبل الموعود يحتاج إلى شواهد، فتأتي الذاكرة لتقول: إن الذي وعدك الآن هو نفسه الذي رعاك من قبل. والوعد لا يأتي من مجهول لم تختبر فضله؛ إن وراءه تاريخاً من الإيواء والهداية والإغناء.

فيصبح الماضي دليلاً على المستقبل.

لا بمعنى أن الإنسان يقيس أقدار الله قياساً حتمياً، فيضمن لنفسه الصورة التي يريد، بل بمعنى أن معرفة إحسان الله السابق تورث الثقة به فيما يأتي. فمن عرف ربه في النعم الماضية، لم يدخل إلى الغد كمن لا يعرف إلى من فؤوض أمره.

إن ذاكرتك ليست سجلاً لما فقدت فقط؛ إنها أيضاً خزانة الشواهد على أنك عشت إلى اليوم محمولاً بالطفاف لم تصنعها وحدك.

من انتظار العطاء إلى معرفة المُعطي

يظل الإنسان في أول الطريق متعلقًا بما يريد: يكثر النظر إلى الباب، ويحسب الأيام، ويراقب العلامات. ثم تربيته التجربة شيئًا فشيئًا، فينتقل من التعلق بالعطاء إلى معرفة المعطي. لا يعود السؤال الوحيد: ماذا سأحصل؟ بل يصبح: ماذا تعلمت عن الله وأنا أنتظر؟

لقد يكون أعظم ما منحه الانتظار للإنسان أنه كشف له فقره، وردّه إلى الدعاء، ونزع من داخله وهم السيطرة، وجعله يرى أن الأسباب مهما عظمت لا تعمل إلا بإذن الله.

وحين يعرف القلب ربّه، لا يعود العطاء حدثًا منفصلًا عن التربية. يرى في النعمة تعريفًا بالكرم، وفي التأخير تعريفًا بالحكمة، وفي الحماية تعريفًا بالرحمة، وفي التكليف تعريفًا بالتشريف والمسؤولية.

ولا يعني ذلك أن الألم يزول كله بمجرد المعرفة؛ فالإنسان يبقى إنسانًا، يحزن ويشتاق ويتعب. لكن الألم حين يوضع داخل معرفة الله يفقد قدرته على إنتاج العدم. يظل جرحًا، لكنه لا يعود هاويةً بلا معنى.

﴿فَتَرْضَى﴾: خاتمة الانتظار

لم تحدد الآية مقدار العطاء، لكنها حددت غايته: الرضا. وهذا من أجمل ما يطمئن القلب؛ لأن الله لم يعد نبيه ﷺ بمجرد وصول الخير، بل بوصوله إلى الحال التي يسكن عندها القلب.

قد يصل الإنسان إلى غايته فلا يجدها كما ظن. وقد تتحقق أمنيته ثم يكتشف أن القلق انتقل معه إليها. وقد يملك الشيء الذي انتظره سنين، ثم يخاف فقده منذ اللحظة الأولى. فالوجود الخارجي للنعمة لا يضمن السلام الداخلي.

أما عطاء الله لنبيه ﷺ فهو عطاء يبلغ موطن الطمأنينة.

إن كلمة ﴿فَتَرَضَى﴾ تنقلنا من عالم الأشياء إلى عالم القلب، ومن كثرة المنح إلى أثرها، ومن امتلاك النعمة إلى اكتمال الأنس بالمنعم.

وكان الآية تقول: سيأتيك من ربك ما لا يترك قلبك واقفاً عند باب الحرمان.

وسوف يكشف المستقبل أن هذا الصمت لم يكن خاتمة الكلام.

وأن الليل لم يكن إلا مرحلة في طريق الضحى.

وأن الذي لم يودعك لم يبق معك فحسب، بل أعد لك عطاءً يفوق ما تراه الآن.

ثم، حتى يزداد الوعد ثباتاً في القلب، تفتح السورة سجل الحياة القديم، وتقلب صفحاته واحدةً واحدةً:

ألم يجدك يتيمًا فأوى؟

ألم يجدك غير عالمٍ بتفاصيل الوحي فهدى؟

ألم يجدك عائلاً فأغنى؟

لقد كان العطاء حولك قبل أن تعرف اسمه، وكانت العناية تكتب قصتك قبل أن تقرأها.

ومن هنا يبدأ الفصل التالي: من الذاكرة حين تتحول من موضع للحنين والألم
إلى حجةٍ على دوام الرعاية.

الفصل الخامس

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ)

حين تصبح الذاكرة دليلاً على العناية

بعد أن طمأن الله نبيه ﷺ على حاضره، وفتح له أبواب المستقبل، أعاده إلى ماضيه.

وهذه واحدة من ألطف طرائق القرآن في ترميم القلب: حين تضطرب رؤيتك للحظة الحاضرة، لا يتركك أسيراً لها، بل يدعوك إلى قراءة حياتك كلها. فالحزن يملك قدرةً على محو الذاكرة العادلة؛ يجعل الإنسان يرى ما غاب عنه، وينسى ما وصل إليه، ويحصي الأبواب المغلقة، ولا يكاد يتذكر كم باباً فُتح له من حيث لم يحتسب.

جاءت الآيات الثلاث لتوقظ الذاكرة: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ).

لم تأتِ هذه الذكريات تسليّةً عاطفية، وإنما جاءت حجةً على وهم التوديع. فالذي أحاط طفولتك بالإيواء، وشبابك بالحفظ، وقلبك بالهداية، وحياتك بالكفاية؛ لم يتركك الآن، ولن يضيع رسالتك غداً.

كأن السورة تقول: إذا التبس عليك الحاضر، فاسأل الماضي عن ربك.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾: سؤال لا ينتظر جواباً

الاستفهام هنا للتقرير؛ لا يطلب معلومةً يجهلها المخاطب، بل يستخرج من داخله إقراراً بحقيقة يعرفها. فهو سؤال يفتح الذاكرة حتى تنطق:

بلى، ووجدني يتيمًا فأوى.

ووجدني غير عالم بتفاصيل الوحي فهدى.

ووجدني عائلًا فأغنى.

والاستفهام أبلغ في التذكير من الخبر المجرد؛ لأن الخبر يُلقى على السامع من الخارج، أما السؤال فيجعله شريكًا في استحضار الجواب. لا يقال له فقط: لقد آواك الله؛ بل يُسأل: ألم يقع ذلك؟ ألم تعشه؟ ألم تر آثاره في الطريق الذي قطعته؟

إن اليقين الذي يُستخرج من التجربة أرسخ من معلومة تمر على السمع.

والإنسان قد يعرف النعمة معرفةً ذهنية، لكنه لا يعيش أثرها. يعرف أنه نجا مرات، لكنه يتعامل مع محنته الجديدة كأنها أول موقف بينه وبين الله. يعرف أن أبواباً فُتحت له من قبل، لكنه عند الباب المغلق ينسى تاريخ الفتح كله.

فتأتي كلمة ﴿أَلَمْ﴾ كطريقة رحيمة على باب الذاكرة: أعد النظر. ليس هذا أول موضع افتقار لك، ولا أول مرة تتولاك فيها عناية الله.

﴿يَجِدْكَ﴾: عِلْمٌ وَإِحَاطَةٌ وَتَدْبِيرٌ

ليس معنى «الوجدان» هنا أن الله لم يكن يعلم حال نبيه ثم وجده بعد خفاء؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو سبحانه بكل شيء عليم، ولا يطرأ على علمه اكتشاف بعد جهل. وإنما التعبير يدل على علمه بحاله وإحاطته به وتعلق لطفه وتدبيره بما كان فيه.

وجدك في حال اليتيم، فلم تكن غائباً عن علمه.

وجدك في افتقارك إلى الوحي، فلم يتركك بلا هداية.

وجدك في العيلة، فساق إليك من أسباب الكفاية ما أغناك.

والإنسان حين يعاني قد يشعر أن ألمه مجهول، لا لأن الله يجهله، بل لأن قلبه لا يرى أثراً عاجلاً للاستجابة. تأتي الآية لتصح ذلك الشعور: قد يجهلك الناس، وقد لا يدركون مقدار ما تحمله، وقد تمر حاجتك أمام أعينهم فلا يرونها؛ لكنك لا تغيب عن علم الله لحظة.

وكم في الفرق بين أن تكون بلا عون، وأن تكون بلا شاهد!

قد يتأخر العون لحكمة، لكن المؤمن لا يبقى بلا شاهد؛ الله يعلم موضعه، ويسمع دعاءه، ويحصي صبره، ولا تضيع عنده تفصيلاً واحدة من وجعه.

(يَتِيمًا فَآوَى): الطفولة التي أحاطتها العناية

وُلد النبي ﷺ يتيم الأب؛ فقد مات أبوه عبد الله قبل مولده على المشهور، ثم فقد أمه آمنة وهو في السادسة، فكفله جده عبد المطلب، ثم توفي الجد وهو في الثامنة، فانتقلت كفالتة إلى عمه أبي طالب.

إنها طفولةٌ تتابع عليها الفقد في وقت مبكر. وكلما تعلّق الصبي بحضن، أدرك الموت ذلك الحضن. وكان يمكن لليتيم في بيئة تقوم فيها الحماية على الأب والعشيرة أن يجعل الطفل عرضةً للضياع، لكن الله ساق إليه الإيواء في كل مرحلة.

مات الأب، لكن العناية لم تمت.

وغابت الأم، لكن الحفظ لم يغب.

ورحل الجد، لكن الله هياً العم.

لم يكن الإيواء إلغاءً لمرارة اليتيم؛ ففقد الأب والأم حقيقة مؤلمة، ولا ينبغي للحديث عن اللطف أن يفرغ الحزن من معناه الإنساني. وإنما كان الإيواء إحاطةً بالفقد حتى لا يتحول إلى ضياع. بقيت في السيرة آثار اليتيم، لكن اليتيم لم يستطع أن يبتلع صاحب الرسالة.

وهنا تظهر دقة التعبير: (فَآوَى). لم يقل: فأغنى فقط، أو فحفظ، بل ذكر الإيواء؛ لأن اليتيم لا يحتاج إلى الطعام وحده، بل إلى مأوى نفسي واجتماعي، إلى حضن يشعر فيه أنه ليس متروكًا، وإلى حماية تحفظ كرامته قبل أن تحفظ جسده.

فقد يُطعم اليتيم ويبقى جائعًا إلى الأمان.

وقد يُكسى ويبقى عاريًا من الحنان.

وقد تُدفع إليه النفقة، ثم يُذكر في كل يوم بأنه عبء على من ينفق عليه.

أما الإيواء الحق فيمنحه موضعًا في القلب قبل أن يمنحه موضعًا في البيت.

الإيواء الذي تعددت وسائله

ينسب القرآن الإيواء إلى الله: (فَأَوَّيْ)، مع أن الإيواء جرى بأيدي بشر: كفله جده، ثم عمه، واحتضنته أسرته. وهذا يفتح للوعي بابًا لفهم العلاقة بين لطف الله والأسباب.

فإن الله هو المؤوي، وقد جعل البشر وسائلًا لإيوائه.

وهو الرازق، وقد يأتي الرزق على يد إنسان.

وهو الشافي، وقد يجعل الشفاء في دواء يصفه طبيب.

وهو الناصر، وقد يسوق النصر في موقف صديق أو جماعة مؤمنة.

نسبة الفضل إلى الله لا تلغي فضل الناس، كما أن شكر الناس لا ينبغي أن يحجب القلب عن المنعم الأول. إنما يستقيم الوعي حين يرى اليد القريبة ويشكرها، ثم يرى وراءها تدبير الله الذي ساقها.

وقد يعيش الإنسان محاطًا بأسباب كثيرة فيتوهم أنه مستقل بها، حتى تسقط بعض الأسباب فيكتشف أن الثبات لم يكن لها بذاتها. وفي المقابل قد تضيق

الأسباب حتى يظن أنه فقد كل باب، ثم يخلق الله له من حيث لا يعلم مأوى جديداً.

ليس معنى التوكل احتقار الوسائط، بل ألا تتحول الوسائط في القلب إلى أرباب.

لماذا بدأ باليتم؟

كان يمكن أن تبدأ الذكريات بالهداية، فهي أعظم النعم، لكن السورة بدأت باليتم؛ لأنه أول أحوال النبي ﷺ في ترتيب العمر، ولأن بناء الحجة يسير مع خط حياته: من الطفولة إلى هداية الرسالة، ثم إلى الكفاية.

وفي البدء باليتم معنى يمس أصل السورة: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ). فالذي يخشى الوداع الآن يُذكّر بأنه كان منذ بدايته البشرية في موضع يبدو في أعرف الناس أقرب إلى معنى الفقد، ومع ذلك لم يتركه الله.

لقد سبقته رعاية الله إلى العالم.

قبل أن تكون له ذاكرة يدعو بها، كان محفوظاً.

وقبل أن يتعلم الكلمات، كانت أسباب بقائه تُساق إليه.

وقبل أن يعرف حاجته، كان الله يعلمها.

فالإنسان لا يبدأ قصته يوم بدأ وعيه بها. وراء كل واحد منا سنوات لم يكن قادراً فيها على حفظ نفسه، ومع ذلك عبرها. كم من خطر لم نره، وكم من يد أرسلت إلينا، وكم من حاجة قضيت قبل أن نعرف كيف نسال!

إن بداياتنا نفسها أدلة افتقار، وأدلة عناية في الوقت ذاته.

اليتم الذي يصنع البصيرة

لم يكن يتم النبي ﷺ نقصاً في إعدادهِ للرسالة، بل كان جزءاً من السيرة التي أعدته لحمل هم الضعفاء. فمن ذاق الفقد يعرف ما لا تمنحه المعرفة المجردة، ويرى في وجه اليتيم معنى قد لا يراه من عاش محاطاً بالأمان.

لكن الألم لا يصنع الرحمة آلياً؛ فقد يتحول الجريح إلى قاسٍ إذا تُرك لمرارته، وقد يعيد إنتاج ما وقع عليه حين يملك القوة. إنما يصنع الألم الرحمة حين تهذب الهداية، وحين يقرأ الإنسان تجربته في ضوء نعمة الله لا في ضوء الرغبة في الانتقام.

ولهذا لم تقل السورة: كنت يتيماً، ثم تنتهي، بل قالت: (فَأَوَى). فالذي سيبنى الخلق ليس ذكر الجرح وحده، بل ذكر الجرح مقروناً بالإيواء. لا تتذكر أنك تألمت فقط؛ تذكر كذلك كيف أدركتك الرحمة.

وعندها يتحول الماضي من مستودع للمرارة إلى مصدر للمسؤولية: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ).

كأن الله يقول: اجعل الإيواء الذي نزل في حياتك يمتد على يدك إلى حياة غيرك.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾: المعنى الذي ينبغي تحريره

هذه الآية من المواضع التي تحتاج إلى دقة؛ لأن لفظ «الضلال» تنتوع دلالاته في العربية والقرآن بحسب السياق، وليس كل ضلال كفرًا أو انحرافًا عقديًا.

والنبي ﷺ قبل البعثة لم يكن على شرك قومه، ولم يسجد لصنم، وقد عصمه الله وهياً فطرته للتوحيد. لكنه لم يكن يعلم تفاصيل الكتاب والشرع الذي أوحاه الله إليه، ولا يعرف طريق الرسالة بأحكامها وحقائقها حتى هداه الله بالوحي.

ويفسر هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾،

أي: من غير العارفين بهذه القصة وهذا الوحي قبل أن يعلمك الله إياه.

فالمعنى: وجدك غير عالم بتفاصيل الوحي والنبوة وشرائع الدين التي لم يكن سبيل إلى معرفتها إلا بتعليم الله، فهداك إليها، واصطفاك لحملها، وجعلك هاديًا بها بإذنه.

لا يجوز أن تفهم الآية بما ينتقص من مقام النبي ﷺ أو ينسب إليه انحرافًا في الاعتقاد قبل النبوة. السياق سياق امتنان بالوحي، لا سياق توبة من شرك.

الهداية هنا ليست فكرة بل اصطفاء

لم تكن هداية النبي ﷺ مجرد انتقال شخصي من حيرة إلى طمأنينة، بل كانت هدايةً تتصل بها هداية أمة. هداه الله بالوحي، ثم جعله دليلاً إليه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾،

أي تدل وترشد بما أوحاه الله إليك، أما هداية التوفيق وفتح القلوب فمن الله وحده: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

وهذا التمييز يحفظ التوحيد ويحفظ مقام الرسالة: الرسول يبين الطريق أكمل بيان، لكنه لا يملك أن يخلق الإيمان في القلوب. ومن هنا كان عليه البلاغ، وكانت القلوب بيد الله.

وفي قوله: ﴿فَهْدَى﴾ اختصار لتاريخ كامل: غار حراء، ونزول جبريل عليه السلام، و﴿اقْرَأْ﴾، وتعليم الكتاب والحكمة، وتتابع الوحي، وبناء التصور، وتقويم المجتمع، وتربية الأمة. كل هذا الفيض اختصرته كلمة واحدة: ﴿فَهْدَى﴾.

إن بعض الكلمات القرآنية أصغر من حيث الحروف، لكنها أوسع من التاريخ.

نعمة أن تعرف الطريق

قد يمتلك الإنسان مأوى ومالاً وصحة، لكنه لا يعرف لماذا يعيش ولا إلى أين يمضي. تتسع أمامه الوسائل، وتضيع منه الغاية. يعرف كيف يصل إلى أشياء كثيرة، لكنه لا يعرف ما الشيء الذي يستحق أن يصل إليه.

وهذا أحد أفقر أنواع الفقر: أن تمتلئ اليد وتضيع الوجهة.

لذلك كانت الهداية أعظم من مجرد إرشاد إلى بعض المصالح؛ إنها إعادة ترتيب للوجود كله. بها يعرف الإنسان ربه، ويفهم نفسه، ويدرك معنى الحياة، ويميز بين الوسيلة والغاية، ويعرف أن الموت انتقال لا عبث، وأن الأخلاق ليست اتفاقاً هشاً، وأن عمله الصغير يلتقي بيوم الحساب.

الهداية لا تزيل كل الأسئلة الجزئية، لكنها تمنح الإنسان مركزاً لا يضيع معه في اتساعها. لا تجعله محيطاً بكل حكمة، لكنها تعرفه بمن يرجع إليه حين تخفى الحكمة.

ومن عرف الطريق استطاع أن يحتمل وعورته، أما من ضاعت وجهته فقد تزيده السرعة بُعداً.

الهداية عطاءً يتجدد

لا ينبغي أن يتعامل المؤمن مع الهداية كذكرى وقعت وانتهت. إننا نقول في كل ركعة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

فنحن نحتاج إلى أصل الهداية، وإلى الثبات عليها، وإلى الزيادة منها، وإلى معرفة الحق في التفاصيل المتجددة، وإلى القوة للعمل بما عرفنا. قد يعلم الإنسان الطريق لكنه يضعف عن سلوكه، وقد يسير فيه ثم تلتبس عليه المفترقات، وقد يصيب في قضية ويخطئ في أخرى.

لهذا يبقى القلب فقيراً إلى الهداية حتى يلقي الله.

والعالم يحتاجها كما يحتاجها الجاهل.

والصالح يحتاج إلى الثبات كما يحتاج العاصي إلى التوبة.

وصاحب البصيرة يحتاج أن يحفظه الله من رؤية نفسه.

ومن ظن أنه استغنى عن سؤال الهداية فقد جهل معنى الهداية.

(وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى): حين تأتي الكفاية

العائل هو الفقير المحتاج. وقد عرف النبي ﷺ ضيق العيش، فلم يولد في بيت ملك ولا خزان، ولم تكن الرسالة طريقًا إلى ترف الدنيا. لكن الله ساق إليه من أسباب الكفاية ما أغناه عن ذل الحاجة إلى الناس، ومن ذلك ما كان من عمله وتجارته، ثم زواجه من خديجة رضي الله عنها وما وجد في بيتها من سكن ومعونة، ثم ما فتح الله له بعد ذلك.

ولا ينبغي اختزال الإغناء في كثرة المال؛ فقد عاش النبي ﷺ بعد البعثة حياة زاهدة، تمر به الأيام ولا يوقد في بيته نار للطعام، ويربط الحجر على بطنه من الجوع، ويموت ودرعه مرهونة. فلم يكن الغنى المقصود ترفًا ماديًا، وإنما أغناه الله بالكفاية، وبالقناعة، وبما هيا له من أسباب، وبالغنى الذي يستقر في النفس فلا يجعلها أسيرة لما في أيدي الناس.

وقد قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

فكم من غني في حساب المال فقير في باطنه؛ كلما جمع ازداد خوفًا، وكلما ملك شيئًا صار مملوكًا له. وكم من إنسان محدود اليد، لكنه عزيز النفس، لا يبيع دينه ولا كرامته، ويجد في القليل الذي كفاه الله سعة لا يجدها أصحاب الخزائن.

غير أن الحديث عن غنى النفس لا يجوز أن يتحول إلى تجميل للفقير أو إعفاء المجتمع من مقاومته. فقد استعاذ النبي ﷺ من الفقر، وجعل للفقراء حقوقاً في أموال الأغنياء، وأمر بالإطعام والإنفاق. الجوع ألم حقيقي، والحاجة قد تُذل الإنسان، ومن واجب الأمة أن تقيم من العدل والتكافل ما يصون كرامته.

غنى النفس فضيلة، لكنه لا يبرر بخل القادرين.

ثلاثة أحوال وثلاثة أفعال

تقوم الآيات على مقابلات شديدة الإحكام:

فعل العناية	حال الافتقار
فأوى	يتيمًا
فهدى	غير عالم بالوحي
فأغنى	عائلاً

ثلاث فجوات كبرى في الحياة الإنسانية: فقد السند، وفقد الطريق، وفقد الكفاية.

ويقابلها ثلاثة ألوان من الرحمة: المأوى، والهداية، والغنى.

فالإيواء يحفظ الوجود الاجتماعي والنفسي.

والهداية تحفظ المعنى والوجهة.

والإغناء يحفظ الكرامة من ذل الحاجة.

وكان السورة تستعرض عناية الله بالإنسان في أبعاده الكبرى: قلب يحتاج إلى أمان، وروح تحتاج إلى نور، وجسد وحياة يحتاجان إلى كفاية.

وليس الترتيب اعتباطاً. بدأ بالمأوى لأن الطفل يحتاج أولاً إلى من يحفظ وجوده، ثم جاءت الهداية التي تمنح الحياة معناها، ثم الكفاية التي تعين صاحب الرسالة على المضي.

لقد تكفلت العناية بالإنسان والرسول معاً.

أين مفعول الأفعال؟

قال تعالى: (فَأَوَى)، و(فَهَدَى)، و(فَأَغْنَى)، ولم يكرر ضمير المخاطب فيقول: فأواك، فهداك، فأغنأك.

والسياق يدل على المفعول دلالة واضحة، فحذف إيجازاً ورعاية لفواصل السورة، وجاءت الأفعال مطلقة الجرس، متلاحقة الإيقاع. وفي هذا الحذف اتساع لطيف؛ فالإيواء والهداية والإغناء لم تقف آثارها عند النبي ﷺ وحده، بل امتدت ببعثته إلى أمته والعالم.

أواه، ثم جعل في رسالته مأوى للقلوب.

وهداه، ثم بعثه هادياً ودليلاً.

وأغناه، ثم علم به الناس غنى النفس وكرامة العبودية لله.

ما يبدأ نعمة خاصة في حياة النبي ﷺ يتحول برسالته إلى رحمة عامة.

الذاكرة بين الشكوى والشهادة

للذاكرة بابان: قد تدخل منها إلى المرارة، وقد تدخل منها إلى الشكر. تستطيع أن تستعيد ما جرى لتثبت لنفسك أن العالم كله كان ضدك، وتستطيع أن تستعيده لترى كيف عبرت رغم ما كان ضدك.

وليس المطلوب إنكار الأذى؛ فما وقع قد وقع، والظلم لا يصبح خيرًا لأن الإنسان نجا منه. لكن عدالة الذاكرة تقتضي ألا نحفظ فعل المؤذي وننسى لطف المنجي، وألا نجعل قصة حياتنا ملكًا للذين جرحونا.

بعض الناس يمنح ظالمه سلطةً على ماضيه كله؛ فكلما تذكر حياته لم ير فيها إلا وجه من آذاه. أما السورة فتعيد كتابة الذاكرة من مركز آخر: نعم، كان هناك يتم؛ لكن هناك إيواء. وكانت هناك عيلة؛ لكن هناك إغناء. وكان هناك افتقار إلى علم الوحي؛ لكن هناك هداية.

لا تُلغِ الجرح، بل ضع إلى جواره يد الرحمة التي حملتك بعده.

إن وجود النجاة لا يبرئ الظالم، لكنه يمنعه من امتلاك المعنى الأخير.

حين تنسى النفس شواهد العناية

الإنسان سريع النسيان؛ إذا نزلت به شدة جديدة تعامل معها كأنها أول حدث في تاريخ علاقته بالله. وكم من دعاء أجابه الله، ثم إذا تأخر دعاء آخر قال القلب: أين الإجابة؟ وكم من مأزق خرج منه، ثم إذا دخل مأزقًا جديدًا ظن أن الأبواب كلها قد أغلقت.

ولهذا يحتاج الإيمان إلى ذاكرة.

ليس المقصود أن يدوّن الإنسان النعم بالأرقام فقط، مع أن تذكرها محمود، بل أن يبني من تجاربه معرفةً بالله. كل نجاة سابقة ينبغي أن تضيف إلى قلبه قدرًا من الثقة، وكل عثرة قام بعدها ينبغي أن تمنعه من إعلان نهايته عند العثرة التالية.

نحن لا نستدل بالماضي على أن المستقبل سيطابق رغباتنا، وإنما نستدل به على أن ربنا لم يكن غائبًا عن الطريق.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال لابن عباس رضي الله عنهما: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». ومن معاني ذلك أن يبني العبد في أيام السعة معرفةً وعبادةً وثقةً تضيء له حين تنزل الشدة؛ فلا يكون أول لقائه بأسماء الله في ساعة الانكسار.

لا تنسب نجاتك إلى نفسك وحدها

قد يراجع الإنسان ماضيه، فيرى ذكاهه وصبره وقراراته، وينسى الظروف التي لم يصنعها، والأشخاص الذين سُخّروا له، والأخطار التي لم يكن يعلم بها، والفرص التي لم يكن قادرًا على خلقها.

لا تلغي السورة قيمة السعي؛ فقد عمل النبي ﷺ ورعى الغنم وتاجر وأخذ بالأسباب. لكنها تنسب المآلات إلى أصلها: ﴿فَأَوَّيَّ﴾، ﴿فَهَدَى﴾، ﴿فَأَغْنَى﴾.

أنت تعمل، لكن الله يمنح العمل إمكانه وثمرته.

وتختار، لكنك تختار بعقل وقوة ووقت لم تخلقها.

ويمد إليك الناس أيديهم، لكن الله هو الذي صرف قلوبهم إليك.

وتتجو بسببٍ ظاهر، لكن وراء السبب أقدارًا متشابكة لم تكن تملك ترتيبها.
 إن معرفة فضل الله لا تمحو دور الإنسان، بل تنقذه من الغرور. وتمنحه كذلك
 رحمةً بمن لم تتيسر لهم الأسباب نفسها؛ فلا يحتقر فقيرًا لأنه لم يحقق ما
 حققه، ولا يسخر من متعثر كأن النجاح كان صناعته المنفردة.

من الامتنان إلى التكليف

بعد عرض هذه النعم الثلاث، تنتقل السورة مباشرةً إلى ثلاثة توجيهات: (فَأَمَّا
 الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

وليس الانتقال مفاجئًا، بل هو النتيجة الطبيعية للتذكير. فالنعمة في القرآن لا
 تكتمل معرفتها حتى تتحول إلى عمل. ولذلك جاء البناء قائمًا على مقابلة
 معنوية:

لأنك كنت يتيماً فأواك، فلا تقهر اليتيم.

ولأنك افتقرت إلى الهداية فهداك، فلا تنهر من جاء طالباً للعلم والرشاد.

ولأنك كنت عائلاً فأغناك، فاعرف نعمة ربك وتحدث بها، وأوصل من آثارها
 إلى المحتاج.

ويمكن أن تتداخل وجوه المناسبة بين النعم والأوامر؛ فالسورة نسيج متكامل،
 لا مقابلات حسابية جامدة. لكن المقصد ظاهر: ما تلقّيته من الله ينبغي أن
 يصير خلقاً تقدمه لعباده.

فإن أواك الله، فكن مأوى.

وإن هداك، فكن دليلاً برفق.

وإن أغناك، فلا تجعل الغنى سوراً بينك وبين المحتاجين.

وإن جبرك، فلا تمر على المكسورين بقدم غليظة.

الماضي ليس حجةً للامتياز

حين ينجو الإنسان من الفقر أو الضعف قد يروي ماضيه ليبرهن على تفوقه: كنت كذا، ثم صنعت نفسي بنفسي. وقد تتحول قصة الألم إلى رأسمال للكبر؛ ينظر به إلى من لا يزالون في الموضع الذي خرج منه باحتقار، وكأنه نسي اختلاف الأقدار وتفاوت الفرص.

أما القرآن فيعيد سرد الماضي بطريقة تمنع الغرور: لم يقل للنبي ﷺ إنك تجاوزت اليتيم بقوتك، بل قال: ﴿فَأَوَى﴾. ولم يقل إنك اهتديت باستقلال عقلك، بل قال: ﴿فَهَدَى﴾. ولم يقل إنك صنعت الغنى وحدك، بل قال: ﴿فَأَغْنَى﴾.

حين يحضر الفاعل الحقيقي في الوعي، تسقط دعوى الاستغناء.

وهذا لا ينقص من قيمة جهد الإنسان؛ بل يضعه في موضعه الصحيح: الجهد عبودية، والتوفيق فضل. تعمل بكامل طاقتك، ثم لا تتأله على الناس بما حققت، لأنك تعلم كم من عناصر النجاح لم تكن من صنعك.

والذاكرة التي تنسب الفضل إلى الله لا تصنع متفاخرًا بنجاته، بل رحيماً بمن لا يزال ينتظر النجاة.

اليتم والسائل: امتحان صدق الذاكرة

لا يُعرف صدق تذكرنا للنعم من حرارة الكلام عنها فقط، بل من طريقة تعاملنا مع الضعفاء. قد يكثر الإنسان من الحديث عن الأيام القاسية التي مر بها، ثم يمارس القسوة نفسها حين تتغير مكانته. وهذا يعني أنه حفظ تفاصيل الألم، لكنه لم يتعلم حكمته.

اليتم الذي سيقف أمامك ليس شخصًا غريبًا تمامًا عن قصتك؛ إنه يوقظ فيك معنى الافتقار الذي عرفته البشرية كلها، وعرفه النبي ﷺ في أعلى صور التربية والاصطفاء. والسائل لا يختبر مقدار ما في يدك فقط، بل يختبر ما بقي في قلبك من ذكرى الحاجة.

كم هو مؤلم أن ينسى الفقير القديم لغة الفقراء بعد غناه، وأن ينسى المقهور القديم وجع الإهانة بعد أن يمتلك سلطة، وأن يتحول من كان يطلب بابًا إلى حارس يمنع الناس من الأبواب!

السورة تقطع هذا التحول الأخلاقي من جذره: تذكر ماضيك، لا لتستدعي شفقة الناس عليك، بل لتمنع يدك من أن تؤذي من يشبهك في ضعفك القديم.

العناية التي كانت تكتبك

حين يستعيد النبي ﷺ هذه المحطات الثلاث، يتضح أن حياته لم تكن أحداثًا مبعثرة. اليتيم، والإيواء، والهداية، والكفاية؛ كلها أجزاء من إعداد طويل للرسالة.

لم يكن اليتيم حادثًا خارج السيرة، بل كوّن في القلب معرفةً بالضعف.

ولم تكن العيلة نقصًا في مقامه، بل حفظته من ترف يعزل صاحبه عن حياة الناس.

ولم يكن انتظار الوحي فراغًا، بل سبقته فطرة نقية وتأمل وخلوة، ثم جاء الاصطفاء في مواعده.

إن الله كان يكتب نبيه ﷺ للرسالة قبل أن يعرف الناس معنى الرسالة.

وفي حياة الإنسان أشياء لا يتضح موقعها إلا بعد زمن. موهبة أهملها قد تصبح أدواته في خدمة معنى كبير، وألم مر به قد يفتح بصيرته إلى أوجاع الناس، وكتاب قرأه في طفولته قد يظل بذرة نائمة حتى يأتي موسمها، وطريق أغلق قد يدفعه إلى المجال الذي خلق له.

لكننا لا نزع أن كل تفصيل دنيوي سينكشف لنا معناه، ولا أن كل مأساة يجب تحويلها إلى قصة نجاح كي تستحق الصبر. يكفي أن المؤمن لا يرى نفسه متروكًا للعبث، وأن يعلم أن الله قادر على أن يخرج من الضعف معنى، ومن الفقد عبودية، ومن التجربة نورًا لا يحصل عليه من عاش بعيدًا عنها.

البرهان الذي تحمله حياتك

ثمة أدلة نقرأها في الكتب، وأدلة تمشي في أعمارنا.

أنت لا تعرف رحمة الله من النصوص وحدها، بل من مراتٍ كنت ستسقط فيها فأمسك بك، ومن أشخاص جاءوا في وقتهم، ومن قوة وُلدت فيك حين ظننت أنك استنفدتها، ومن أبواب لم تكن تراها ثم فُتحت، ومن أخطار عرفت بعضها بعد أن تجاوزتها.

هذه التجارب لا تنشئ عقيدةً مستقلة عن الوحي؛ فالوحي هو الميزان الذي نفهمها به. لكنها تجعل المعرفة حيّة، وتمنح القلب شاهدًا شخصيًا على معاني الإيواء والهداية والكفاية.

وحين تهمس الوحشة: لقد تُركت، تستطيع الذاكرة المؤمنة أن تجيب:

لو تُركت حقًا، فمن حملك في المرة السابقة؟

ومن دلك حين التبس الطريق؟

ومن ساق إليك ما لم تعرف كيف تصل إليه؟

ومن أبقاك بعد أيام ظننت أنك لن تعبرها؟

إن حياتك ليست برهانًا على أنك لن تتألم مرة أخرى، لكنها برهان على أن الألم السابق لم يكن نهاية القصة.

من رعاية الله لك إلى رعايتك لحقوق عباده

تنتهي رحلة الذاكرة، لكن مقصدها العملي يبدأ. لقد ذكر الله نبيه ﷺ بما تلقاه من الإيواء والهداية والإغناء، ثم وضع أمامه ثلاث مسؤوليات. وهذا يدل على أن الشكر ليس شعورًا داخليًا فحسب؛ إنه صورة جديدة تأخذها النعمة وهي تعبر من حياتك إلى الآخرين.

فالخبز الذي أطعمت به جائعًا هو نعمة الله وقد واصلت سيرها.

والكلمة التي حفظت بها كرامة سائل هي أثر من آثار هدايته.

والباب الذي فتحته ليتيم هو امتداد للإيواء الذي عرفت معناه.

والعلم الذي بذلته برفق هو نور لم تحتكره لنفسك.

هكذا يريد القرآن للنعمة أن تجري، لا أن تتجمد. فإذا احتبس الماء فسد، وإذا احتبست النعمة داخل الأنا تحولت إلى غرور. أما حين تسري في حياة الناس، فإنها تصبح شكرًا حيًّا.

لقد جاء الماضي ليطمئن القلب، لكنه جاء أيضًا ليحاسب اليد.

فلا يكفي أن تقول: آواني الله.

السؤال: من وجد في ظلك مأوى؟

ولا يكفي أن تقول: هداني الله.

السؤال: من أمن من فظاظتك وهو يسأل عن الطريق؟

ولا يكفي أن تقول: أغناني الله.

السؤال: هل صار غناك كرامةً لمحتاج، أم صار جدارًا يحجبه عنك؟

ومن هنا تضعنا السورة أمام امتحانها الأخلاقي الأعظم: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ).

إنها لا تطلب مجرد إطعام اليتيم، بل تبدأ بحماية روحه من القهر؛ لأن الإنسان قد يمنح الضعيف شيئًا من ماله، ثم يسلبه بكلمة واحدة ما هو أثمن: كرامته.

وفي الفصل التالي سنقترب من هذا النهي المهيّب، لنرى كيف يحوّل القرآن تجربة الألم إلى ميثاق رحمة، وكيف يمنع القوة من أن تنتقم من ضعفها القديم.

وفيك بارك الله يا صديقي، وأحسن إليك كما أحسنت الظن. نمضي الآن إلى
الموضع الذي تتحول فيه الذكرى إلى أخلاق، والعناية إلى مسؤولية.

الفصل السادس

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

حين يتحول الألم الذي شفاه الله إلى رحمة

بعد أن ذكر الله نبيه ﷺ بثلاث نعم كبرى، نقل الخطاب من الخبر إلى التكليف، ومن استحضار العناية إلى أداء حقها: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ).

لم يكن تذكير النبي ﷺ ببيته استدعاءً لماضٍ مؤلم فحسب، بل إعداداً لموقف أخلاقي في الحاضر. فالذكريات في التربية القرآنية لا تُستحضر لكي يقيم الإنسان طويلاً بين أطلالها، وإنما ليستخرج منها بصيرةً يرى بها الناس، ورحمةً يعاملهم بها.

لقد كنت يتيماً، وعرفت معنى أن ينشأ الطفل وقد غاب عنه السند الأول. ثم آواك الله، وأحاطك بمن يحفظك، وحال بين يتمك وبين الضياع. فإذا وقعت عينك اليوم على يتيم، فلا تنتظر إليه من علو القوة، بل انظر إليه من ذاكرة الضعف الذي عرفته، ومن شكر الإيواء الذي أدركك.

وكان السورة تقول: لا تجعل الماضي مجرد قصة ترويها؛ اجعله خلقاً تمشي به.

الفاء التي تصل النعمة بالواجب

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا﴾، فجاءت الفاء لتربط ما بعدها بما قبلها. وهذه الصلة هي مفتاح القسم الأخير من السورة: ما دمت قد عرفت إيواء الله وهدايته وإغنائه، فإن لهذه المعرفة أثرًا ينبغي أن يظهر في سلوكك.

فالنعمة لا تقف عند حدود الامتتان القلبي، بل تنشئ واجبًا.

إذا علّمك الله، صار من حق العلم أن تبذله.

وإذا أغناك، صار للمحتاج حق في مالك ورفقك.

وإذا حفظ كرامتك في ضعفك، صار واجبًا عليك ألا تهين ضعيفًا حين تقوى.

إن الإنسان في التصور القرآني ليس مالًا نهائيًا لما أُعطي، بل مؤتمن عليه. المال أمانة، والعلم أمانة، والسلطة أمانة، والتجربة أمانة، وحتى الجرح الذي شفاه الله يمكن أن يصير أمانةً إذا منح صاحبه قدرةً خاصة على فهم المجروحين.

ومن هنا لا تسأل السورة: ماذا شعرت حين تذكرت نعمة الله؟ بل تسأل ضمناً: ماذا فعلت لأنك تذكرتها؟

لماذا بدأ النهي بالقهر؟

لم تقل الآية: «فأما اليتيم فأطعمه»، مع عظم الإطعام، ولا: «فأعطه»، مع أهمية الكفالة، بل قالت: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾.

والقهر أوسع من الحرمان المادي؛ هو الغلبة المصحوبة بالإذلال، واستعمال القوة في سحق من لا يستطيع الدفع عن نفسه. وقد يُطعم الإنسان اليتيم، ثم يقهره. يضع الطعام في يده، لكنه ينتزع كرامته بكلمة. يفتح له بيته، لكنه يذكره كل يوم بأنه دخيل. ينفق عليه، لكنه يجعله يدفع ثمن النفقة من روحه.

فبدأ القرآن بحماية كرامة اليتيم؛ لأن الحاجة إلى الخبز ظاهرة يراها الناس، أما الحاجة إلى الأمان النفسي فقد تختفي خلف الصمت.

قد لا يشكو اليتيم كلما جرح.

قد يبتلع الكلمة لأنه يخاف فقد المأوى.

قد يرضى بالقليل لأنه لا يملك باباً آخر.

قد يبتسم لمن أحسن إليه وهو يحمل في داخله شعوراً ثقیلاً بأنه أقل من أبناء البيت.

ولهذا لم يكتف القرآن بالأمر بالإحسان، بل أغلق باب القهر. فالإحسان قد يفعله المرء مرة، أما ترك القهر فهو أخلاق يومية: في نبرة الصوت، وفي توزيع الاهتمام، وفي طريقة التأديب، وفي حفظ المال، وفي عدم التذكير بالمنة.

اليتيم لا يحتاج إلى شفقةٍ تهينه

ثمة فرق بين الرحمة والشفقة المتعالية. الرحمة تقترب من الضعيف وتحفظ إنسانيته، أما الشفقة المتعالية فتتظر إليه من فوق، وتستمتع بشعورها بالتفوق

الأخلاقي عليه. تعطيه، لكنها تريد أن يبقى مكسورًا حتى يظل عطاؤها ظاهراً.

والقرآن لا يريد لليتيم أن يتحول إلى مشهدٍ نستعرض أمامه صلاحنا. إنه إنسان له حق، وليس وسيلةً لتجميل صورة المحسن.

ليس المطلوب أن يشعر اليتيم في كل لحظة أنك تتفضل عليه، بل أن يشعر أن له موضعاً طبيعياً في الرحمة والعدل. ومن تمام الكفالة أن تنقذه من وعي النقص، لا أن تعمقه فيه.

قد تكون اليد التي تمسح رأسه أصدق من خطاب طويل.

وقد يكون إشراكه في مجلس الأسرة أعظم في نفسه من هدية عابرة.

وقد يكون الإنصات إليه إيواءً لا يقل أثرًا عن إيواء الجسد.

فالمأوى ليس جدراناً فقط؛ المأوى إنسان لا تضطر أمامه إلى الدفاع عن حقه في الوجود.

القهر يبدأ قبل الضرب

يتبادر إلى الذهن عند القهر الاعتداء الجسدي الصريح، لكنه قد يبدأ قبل ذلك بكثير. يبدأ حين يشعر القوي أن ضعف الآخر يبيح له ما لا يبيحه مع غيره.

قد يكون القهر نظرة تُشعر اليتيم بأنه زائد.

أو مقارنةً تضعه دائماً دون أبناء الكافل.

أو سخريةً من ملبسه وفقره.

أو استيلاءً على ماله لأنه لا يملك من يحاسب.

أو قرارًا يُفرض عليه دون أن يُسمع صوته.

أو تذكيرًا متكررًا بأنه مدين لمن آواه.

وقد يكون القهر إهمالًا باردًا؛ فالطفل لا يُضرب، لكنه لا يُرى. يعيش في البيت كقطعة أثاث، تؤدي إليه حاجاته الأساسية، ولا يسأل أحد عما يجري في قلبه.

وكم من إنسانٍ كبر بجسد مكتمل، وبقي في داخله طفل ينتظر كلمة أمان لم تأت!

إن القرآن حين يقول: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ لا يحرس جسد اليتيم فقط، بل يحرس صورته عن نفسه.

لا تجعل قوتك الجديدة تنتقم من ضعفك القديم

ليس كل من عرف الألم يصير رحيماً. فالألم مادة خام؛ قد تهذبها الهداية فتصبح حكمةً ورحمةً، وقد تتركها المرارة فتتحول إلى قسوة وانتقام.

وبعض الناس حين يخرجون من الضعف لا يريدون إزالة النظام الذي أهانهم، بل يريدون الصعود إلى قمته ليعاملوا الآخرين بالطريقة نفسها. يقول أحدهم في باطنه: لقد تحملت القسوة، فليتحملها غيري. وكأن الظلم الذي وقع عليه صار مبرراً لأن يكرره.

لكنه حين يفعل ذلك لا يكون قد تجاوز ماضيه؛ بل يكون الماضي قد استولى عليه. تغيّر موقعه في مشهد القهر، ولم يخرج من المشهد نفسه.

الشفاء الحقيقي ليس أن تصبح قادرًا على فعل ما فعل بك، بل أن تصبح قادرًا على إيقافه.

وليس انتصار المظلوم أن يتبادل المكان مع الظالم، بل أن يكسر قانون الظلم حين تصبح القوة في يده.

ولهذا خاطبت السورة النبي ﷺ بعد تذكيره بإيواء الله: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ). لقد عرف ضعف اليتيم، لكنه لم يحمل من التجربة مرارةً على الضعفاء؛ حمل رحمةً بهم. وهذا أحد وجوه الكمال النبوي: أن الجرح لم يفسد نقاءه، وأن الألم لم يتحول في يده إلى أداة لإيلام الآخرين.

حين تمتحن القوة أخلاق الإنسان

يظن كثيرون أنهم يعرفون أخلاق الإنسان في ضعفه، لكن القوة هي التي تكشف جانبًا أعمق منها. فالضعيف قد يمتنع عن الظلم لأنه عاجز عنه، فإذا قدر ظهر ما كان مستترًا. أما العادل حقًا فهو الذي يستطيع أن يقهر ثم يمتنع؛ لا خوفًا من الناس، بل خوفًا من الله.

ولهذا كان اليتيم امتحانًا للقوي؛ لأنه غالبًا لا يملك ما يدفع به الظلم، ولا نفوذًا يُخشى، ولا صوتًا يصل سريعًا إلى مواضع القرار. والإحسان إلى من نرجو نفعه قد تخالطه المصلحة، أما حفظ حق من لا نرجو منه جزاءً دنيويًا فهو أقرب إلى اختبار الضمير.

إن أخلاق المجتمعات لا تُقاس بما تمنحه لأصحاب السلطة، بل بما تضمنه لمن لا سلطة لهم.

كيف يُعامل الطفل الذي لا أب له؟

والفقير الذي لا وساطة له؟

والغريب الذي لا عشيرة تحميه؟

والمريض الذي استنفد ماله؟

والعامل الذي يستطيع صاحب العمل أن يستبدله بسهولة؟

هناك تظهر حقيقة الدين في الاجتماع؛ لأن التقوى التي لا تنزل إلى علاقة القوي بالضعيف قد تبقى مظهرًا لا يغير بنية الظلم.

يتمّ يتجاوز فقد الأب

اليتيم في الاصطلاح هو من فقد أباه قبل البلوغ، ولا ينبغي إذابة هذا المعنى المحدد في استعارات توسّعه حتى يضيع حق اليتيم الحقيقي. لكن الآية، مع حفظ مدلولها الأصلي، تفتح بصيرتنا إلى كل من يعيش معنى الضعف وفقد السند.

ففي العالم أيتام لهم آباء أحياء، لكنهم لا يجدون حضورهم.

وأطفال فقدوا الأمان بسبب الحروب والنزوح.

وصغار يعيشون في بيوت ممتلئة بالأشخاص، لكنها خالية من الرحمة.

ومستنون صاروا في أواخر أعمارهم كمن لا سند له.

وغرباء لا يملكون في المدن التي ألقتهم إليها الظروف وجهًا يأوون إليه.

لا نسمي هؤلاء أيتامًا بالمعنى الفقهي، لكن النهي عن القهر يعلمنا أن نرى فيهم صورة الضعف التي تستوجب الرحمة والعدل.

فالقرآن يبدأ من اليتيم، ثم يربي في القلب حساسيةً تجاه كل من تُغري هشاشته الآخرين باستعمال القوة عليه.

المجتمع الذي يقهر أيتامه

لا يكون القهر فرديًا دائمًا؛ قد يتحول إلى نظام اجتماعي. يحدث ذلك حين تضيع أموال الأيتام في المحاكم، أو يأكل الأقارب ميراثهم، أو يُحرمون التعليم، أو تُدفع الفتاة اليتيمة إلى زواج لا تريده لأن لا أحد يصغي إليها، أو تتحول دور الرعاية إلى مخازن للأجساد بلا دفء ولا تأهيل.

وقد يُستعمل اليتيم وسيلةً لجمع التبرعات، ثم لا يصل إليه من المال إلا القليل. تُعرض صورته، وتُروى قصته، وتُستهلك خصوصيته لاستدراج العاطفة، بينما يُحرم حقه في أن يُعامل إنسانًا له ستر وكرامة.

وهذا لون معاصر من القهر: أن يتحول ضعف الإنسان إلى مادةٍ دعائية.

إن كفالة اليتيم ليست دفعةً ماليةً فحسب، بل منظومة حماية:

- حفظ ماله من العدوان.
- تأمين حاجته من غير إذلال.

- تعليمه وتأهيله للاستقلال.
- صيانة خصوصيته.
- الاستماع إلى صوته.
- إحاطته بعلاقات إنسانية آمنة.
- تمكينه حين يكبر من إدارة حياته وماله.

فالغاية ليست أن يبقى متعلقًا بالمحسن، بل أن ينمو حتى يقوى على الحياة بكرامة.

الدين الذي يظهر في طريقة المعاملة

قد يطيل الإنسان الصلاة ويكثر من الحديث عن التقوى، ثم يكون فظًا مع من تحت يده. غير أن القرآن يضع حقيقة الدين في موضعٍ لا يسمح بالهروب إلى المظاهر:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

إن دفع اليتيم بعنف ليس خطأ اجتماعيًا صغيرًا منفصلًا عن العقيدة، بل جعله القرآن علامةً على خلل عميق في التصديق بيوم الجزاء. فمن أيقن أنه سيقف بين يدي الله، كيف يطمئن إلى قهر من لا يجد له في الأرض ناصرًا؟

والصلة بين السورتين شديدة الدلالة:

في سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

وفي سورة الماعون: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾.

هناك نهى عن القهر، وهنا كشف للتكذيب الكامن وراء الدفع. فكأن القرآن يقول إن الموقف من اليتيم ليس هامشاً من هوامش الأخلاق، بل مرآة لعلاقة الإنسان بالآخرة.

ليس السؤال: كم تتحدث عن الدين؟

بل: ماذا يفعل دينك حين يقف أمامك ضعيف؟

منة العطاء قد تكون قهراً

قد يؤدي الإنسان حقاً مالياً، ثم يفسده باليمن والأذى. يعطي المحتاج، لكنه يريد أن يمتلك صوته وقراره وكرامته. ويظن أن حاجته إليه تسقط حقه في الاختلاف معه أو نقده أو اختيار طريقه.

وهنا يتحول العطاء إلى سلطة.

ليس كل من أعطاك مالاً قد ملكك، وليس كل من آواك يملك أن يصادر شخصيتك. الإحسان لا يمنح المحسن حق استعباد من أحسن إليه، بل يوجب عليه مزيداً من صيانة كرامته.

وقد نهى القرآن عن إبطال الصدقات باليمن والأذى؛ لأن قيمة العطاء لا تُقاس بما خرج من اليد وحده، بل بما بقي في نفس الآخذ بعده. إذا خرج من عندك ومعه حاجته، لكنه خرج مهاناً محطماً النفس، فقد أطعمت جسده وأوجعت إنسانيته.

ولعل من أرفع صور الإحسان أن تعطي بحيث لا يشعر المحتاج أنه أصغر منك.

حماية مال اليتيم

اعتنى القرآن بمال اليتيم عنايةً شديدة؛ لأنه موضع يغري الطامعين، وصاحبه لا يحسن الدفاع عنه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

ولم يقل: لا تأكلوا فقط، بل قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾، فسدت العبارة المنافذ المؤدية إلى العدوان، ثم استثنت التصرف الذي تتحقق فيه مصلحة اليتيم: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

إن مال الضعيف لا يجوز أن يكون ميدانًا لتجارب الوصي ولا لخدمة مصالحه. والأمانة لا تعني حفظ أصل المال فحسب، بل حسن إدارته بما ينميّه ويحميه، ثم تسليمه إلى صاحبه حين يبلغ رشده.

وكم من يتيم سُرقت حياته مرتين: مرةً حين فقد والده، ومرةً حين أكل أقرب الناس ماله! الأولى مصيبة قدرية، أما الثانية فجريمة بشرية لا يجوز سترها باسم القراية.

الرحمة لا تلغي التربية

قد يُفهم النهي عن القهر على أنه منع لتأديب اليتيم أو تقويمه، وهذا غير صحيح. فاليتيم يحتاج إلى تربية كما يحتاج غيره، وربما كان حرمانه من التوجيه نوعًا آخر من الإهمال. لكن الفرق كبير بين التربية والقهر.

التربية تريد مصلحته.

والقهر يريد إثبات سلطة القوي.

التربية تضبط الفعل وتحفظ الشخص.

والقهر يهين الشخص بسبب الفعل.

التربية تراعي سنه وحاله وتشرح وتدرج.

والقهر ينفجر فيه لأن صاحبه يضمن أنه لا يستطيع الرد.

ليس الرفق تدليلاً يفسد الطفل، كما أن الحزم لا يعني الإهانة. ويمكن للإنسان أن يقول «لا» برحمة، وأن يضع الحدود من غير أن يحطم، وأن يصحح الخطأ من غير أن يجعل المخطئ يشعر بأن وجوده نفسه خطأ.

وكلما كان الطفل قد ذاق الفقد، كان احتياجه إلى هذا التوازن أعظم؛ لأنه قد يقرأ القسوة العارضة بوصفها تهديداً جديداً للمأوى.

الكلمة التي تصير بيتاً

ليس كل إنسان قادراً على كفالة يتيم في بيته أو ماله، لكن كل إنسان قادر على ألا يقهره. وهذا من رحمة التكليف: بدأ بالنهاي الذي يستطيع الجميع امتثاله.

قد لا تملك مالاً كثيراً، لكنك تملك نبرة صوت.

قد لا تستطيع تغيير نظام الرعاية كله، لكنك تستطيع ألا تضيف إلى اليتيم جرحاً جديداً.

قد لا تكون وليه، لكنك تستطيع أن تدافع عن حقه إذا رأيته يُهضم.

وقد تملك علماً أو مهارةً تمنحه بها طريقاً إلى الاستقلال.

وقد تكون كلمة منك أول مرة يشعر فيها أنه منظور إليه بوصفه صاحب قدرة، لا بوصفه موضوعاً للشفقة.

ثمة كلمات تصوير بيوتاً؛ يدخلها الإنسان كلما أرهفته قسوة العالم. وربما نسي قائلها أنه قالها، لكنها تظل في قلب من سمعها مأوى طويلاً.

كما أن ثمة كلمات تهدم البيت الداخلي للإنسان، ولو كان جالساً تحت سقف آمن.

ولهذا كان النهي عن القهر سابقاً في المعنى على صور العطاء: أصلح نبرة قلبك أولاً، حتى لا يتحول خير يدك إلى أذى لسانك.

حين تصبح القيادة إيواءً

يمتد معنى النهي عن القهر إلى كل علاقة تتفاوت فيها القوة: الحاكم مع المحكوم، والمدير مع العامل، والمعلم مع الطالب، والعالم مع المتعلم، والأب مع أبنائه، وصاحب المكانة مع من لا مكانة له.

القوة في المنظور القرآني ليست حقاً في السيطرة، بل قدرة على الحماية. وكلما ازدادت سلطة الإنسان، ازداد عدد الكرامات التي أصبح مسؤولاً عن صيانتها.

والقائد الذي يضع الضعفاء في مواضع الإهانة، ثم يطالبهم بالصبر والإخلاص، لم يفهم معنى الأمانة. فالإخلاص سرّ بين العبد وربّه، أما واجب القائد فهو العدل، وحفظ الكرامة، ومنع الأذى، ووضع الناس في المواضع التي تصون إنسانيتهم وتعينهم على أداء رسالتهم.

لا يكفي أن يقول القوي إنه لم يظلم بيده، إذا كان قد وضع الضعيف في طريق يعلم أن القهر ينتظره فيه. فالإيواء مسؤولية وقائية؛ أن تمنع الأذى قبل وقوعه حين تقدر، لا أن تكفي بمواساة الضحية بعد أن تنكسر.

إن القيادة التي لا تكون مأوى تتحول بسهولة إلى شكلٍ من أشكال اليتيم الجماعي؛ يكون للناس فيها رئيس، لكن لا يكون لهم سند.

لا تطالب المجروح بأن يصمت

من صور قهر الضعيف أن يُطلب منه كتمان ألمه حفاظًا على راحة الأقوياء. فإذا تكلم عن الظلم اتُّهم بقلة الصبر، وإذا طالب بحقه وُصف بأنه ناكر للجميل، وإذا كشف الإهمال قيل له: لا تفصح من أحسن إليك.

لكن الإحسان الجزئي لا يمحو الظلم، ولا يمنح صاحبه حصانةً أخلاقية. قد يحسن الإنسان من جهة ويسيء من جهة، ويُشكر على إحسانه ويُردّ عن ظلمه.

واليتيم أو الفقير أو التابع ليس مطالبًا بأن يدفع ثمن المساعدة بالتنازل عن حقه في الكلام. حفظ الكرامة يعني أن يجد طريقًا آمنًا للشكوى، وأن يُسمع قوله، وأن لا تتحول هشاشته إلى سبب لتكذيبه مقدمًا.

لا ينبغي أن نختبر صبر المظلوم، بينما نترك عدل القوي بلا اختبار.

الجرح الذي يصبح نافذة

إذا هذبت الهداية الألم، تحول في الإنسان إلى حساسية أخلاقية نادرة. يرى النبرة التي لا يلاحظها الآخرون، ويدرك معنى الصمت الطويل في وجه

الطفل، ويفهم ارتباك المحتاج عند السؤال، ويعرف أن بعض الناس لا يريدون مالا بقدر ما يريدون أن لا يُداسوا وهم يطلبونه.

إن التجربة المؤلمة قد تمنح صاحبها لغة يفهم بها ما لم يُقَل.

لكن هذا التحول يحتاج إلى وعي؛ لأن الجرح إذا لم يُفهم قد يجعل الإنسان مفرط الحساسية لنفسه، غافلاً عن آلام غيره. يظل يقول: لم يشعر بي أحد، ثم لا يشعر هو بأحد. ويطالب العالم كله بفهمه، لكنه لا يمنح أحداً صبراً مشابهاً.

أما الشفاء الناضج فيجعل الإنسان يقول: لأنني عرفت هذا الألم، فلن أترك غيري وحيداً فيه.

وهكذا لا يعود الجرح مجرد حادثة وقعت له، بل نافذة يرى منها مسؤولية جديدة.

من الإيواء إلى الحضارة

الأمم كذلك تُعرف بطريقة تعاملها مع أيتامها. فالمجتمع الذي يترك الطفل الضعيف للجوع والجهل والاستغلال لا يعاني نقصاً في الخدمات فقط، بل خللاً في تصوره للإنسان.

إن رعاية اليتيم ليست عملاً خيرياً هامشياً يؤديه بعض المحسنين، بل وظيفة حضارية: بها يُحمى جيل من التحول إلى ضحية دائمة، أو إلى قوة غاضبة تنتقم لاحقاً من مجتمع أهمله. فالطفل الذي يجد تعليمًا واحتواءً وعدلاً يمكن

أن يصير طاقةً للبناء، أما الذي يلقي القهر في كل باب فقد يكبر وهو يحمل العالم في صورة عدو.

كل يتيم يُصان هو مستقبل يُصان.

وكل طفل تُحمى كرامته هو صدع يُغلق في جدار المجتمع.

ولا يكفي أن توفر المؤسسات الطعام والمسكن؛ لا بد من التربية، والصحة النفسية، والتعليم الجيد، والتأهيل المهني، والعلاقات الآمنة، والمتابعة بعد بلوغ سن الرشد. فالإيواء الذي ينتهي فجأة عند سن معينة قد يلقي بالشباب مرة أخرى إلى فراغ أشد خطرًا.

الحضارة ليست ارتفاع المباني، بل انخفاض عدد الذين يُتركون تحتها بلا مأوى معنوي.

(فَلَا تَفْهَرْ): نهْي يراقب الخلوات

يستطيع الإنسان أن يتجمل بالرحمة أمام الناس، لكن حقيقة تعامله مع الضعيف تظهر حين لا يراه أحد. فالقهر غالبًا يقع في المساحات المغلقة: داخل بيت، أو مكتب، أو مؤسسة، حيث يضمن القوي أن صوت الضعيف لن يصل.

ولهذا يحتاج النهي إلى قلب يراقب الله، لا إلى قانون وحده. القانون ضروري لحماية الحقوق، لكنه لا يستطيع أن يدخل كل نبرة ونظرة. أما التقوى فتحضر حين يغيب الشهود؛ تذكّر القوي بأن الله الذي آواه قادر على سلب قوته، وأن اليتيم الذي لا يملك نصيرًا من البشر ليس غائبًا عن رب البشر.

إن أخطر أنواع السلطة هي السلطة التي لا تشعر أنها ستُسأل.

والقرآن يصنع في الضمير محكمةً تسبق محاكم الأرض.

من اليتيم إلى السائل

بعد أن حمى القرآن اليتيم من قهر اليد والسلطة، انتقل إلى السائل، فحماه من نهر اللسان: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

اليتيم ضعيف بسبب فقد السند، والسائل ضعيف في لحظة إظهار حاجته. وكلاهما يقف أمام إنسان يستطيع أن يجرحه من موضع القوة.

ولعل السائل قد جمع شجاعته طويلاً قبل أن يطرق بابك. وربما قاوم حاجته أياماً، ثم جاءته لحظة لم يجد فيها مفراً من السؤال. وقد لا يكون ما سيبقى في نفسه بعد اللقاء مقدار ما أعطيته، بل الطريقة التي نظرت بها إليه.

إن لم تملك العطاء، فإنك تملك ألا تزيد الحاجة إهانة.

وإن لم تستطع فتح اليد، فلا تغلق القلب.

وإن عجزت عن قضاء المسألة، فلا تجعل السائل يندم على أنه ظن بك خيراً.

هناك تبدأ الآية التالية؛ من كرامة الإنسان في اللحظة التي يضطر فيها إلى كشف احتياجه، ومن الكلمة التي تستطيع أن تكون جبراً، أو تتحول إلى جرح أشد من الحرمان.

الفصل السابع

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

حين تُختبر النعمة في صوت المحتاج

بعد أن نهت السورة عن قهر اليتيم، انتقلت إلى صورة أخرى من صور الضعف الإنساني: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

والانتقال من اليتيم إلى السائل انتقال من ضعفٍ مستقر في الحال إلى ضعفٍ ينكشف في لحظة. فاليتيم معروف ببيته، أما السائل فقد يكون مستور الحاجة، يحمل في ظاهره ما لا يكشف اضطراره، ثم تدفعه الظروف إلى أن يقف أمام غيره ويطلب.

وفي تلك اللحظة يكون أشد ما يملكه معرضاً للأذى: كرامته.

لم تأمر الآية بالعتاء ابتداءً؛ لأن الإنسان قد لا يجد ما يعطي، وقد لا يكون المطلوب مشروعاً، وقد تكون المصلحة في عدم إجابة السائل إلى عين ما طلب. لكنها أمرت بما يقدر عليه الجميع: ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾.

قد تعجز يدك عن العطاء، لكن لسانك لا يعجز عن الرفق.

وقد لا تملك حل المشكلة، لكنك تملك ألا تصبح جزءاً منها.

وقد تغلق الحاجة باب مالك، فلا تفتح عليها باب الإهانة.

ماذا يعني النهر؟

النهر هو الزجر بشدة والرد بغلظة. إنه لا يقتصر على رفض الطلب، بل يضيف إلى الرفض أذى في النبذة أو الكلمة أو الهيئة. وقد يكون المحتاج مستعداً لاحتمال الحرمان، لكنه لا يكون مستعداً لأن يعود من السؤال محملاً بإحساس المهانة.

ثمّة فرق عظيم بين أن تقول لمن طلب منك: لا أملك، وأن تجعله يشعر أنه لا يستحق أن يُسمع.

الرفض الأول متعلق بقدرتك.

أما الثاني فاعتداء على كرامته.

وقد ينسى السائل ما لم تعطه، لكنه لا ينسى وجهك حين زجرته. فالجوع قد ينتهي بطعام يأتيه من موضع آخر، أما الكلمة التي استقرت في نفسه فقد تبقى سنوات. ولهذا يعالج القرآن اللسان؛ لأن بعض الجراح لا تصنعها العصا، بل يصنعها الصوت حين يأتي من موضع الاستعلاء.

السائل بين طالب المال وطالب العلم

لفظ السائل يحتل طالب المال والمعونة، كما يحتل من يسأل عن العلم والدين والهداية. وقد ذكر المفسرون المعنيين، وعموم اللفظ يتسع لهما؛ فكل من أظهر افتقاره إليك بسؤال دخل في أدب الآية بقدر حاله.

فطالب المال لا يُنهر لحاجته.

وطالب العلم لا يُزجر لجهله.

والمسترشد لا يُسخر من حيرته.

ومن يسأل عن أمر يراه العالم يسيرًا قد يكون قد قطع طريقًا طويلاً قبل أن يصوغ سؤاله. وما يبدو بدهياً للخبير قد يكون باباً مغلقاً أمام المبتدئ. فإذا قابل المعلم السؤال بالسخرية، لم يقتل سؤالاً واحداً فقط؛ ربما قتل في صاحبه شجاعة التعلم.

وكثير من الجهل في المجتمعات ليس سببه غياب المعرفة، بل غياب البيئة الآمنة للسؤال. يخشى الناس أن يعترفوا بعدم الفهم؛ لأن بعض المتصدرين يجعل من السؤال مناسبةً لاستعراض علمه وجهل السائل.

لكن العالم الرباني لا يرى في السؤال تهديداً لمكانته، بل يرى فيه أمانة. يعلم أن العلم الذي بين يديه لم يولد معه، وأنه كان سائلاً قبل أن يصير مجيباً، وأن الله الذي أخرجه من الجهل قادر على أن يسلبه الفهم إن تكبر به.

فإذا لم يعرف قال: لا أعلم.

وإذا عرف أجاب بقدر الحاجة.

وإذا كان السؤال مضطرباً أصلح مبناه دون أن يهدم صاحبه.

وإذا تكرر السؤال لم يجعل بطاء الفهم تهمةً أخلاقية.

السؤال لحظة انكشاف

الإنسان بطبعه يحب أن يبدو مكتفياً. يخبئ حاجته ما استطاع، ويؤلمه أن يراه الناس في موضع الطلب. لذلك فإن السؤال ليس مجرد كلمات؛ إنه لحظة يتنازل فيها المرء عن جزء من ستره، ويكشف لغيره فجوة في حياته.

وليس كل من سأل خالياً من الحياء. ربما أرهقته الأيام حتى غلب اضطراره خجله. وربما ظل يؤجل السؤال من صباح إلى مساء، ثم جاء بعدما أغلقت في وجهه طرق كثيرة.

ولأننا لا نرى الطريق الذي سبق وصوله إلينا، فقد نتعجل الحكم عليه. نراه واقفاً أمامنا، ولا نرى الليالي التي قادت به إلى الباب. نسمع عبارته المرتبكة، ولا نسمع الحوار الطويل الذي خاضه مع نفسه قبل أن ينطقها.

تأتي الآية لتقول: لست مطالباً بمعرفة قصته كلها حتى تحفظ كرامته. يكفي أنه سائل وأنت قادر على النهر؛ فامنع لسانك من الأذى.

ليس كل سائل صادقاً، لكن كل إنسان له كرامة

قد يكون في السائلين محتال، أو معتاد على المسألة، أو من يطلب ما لا يستحق. والشرعية لا تأمر بالسذاجة، ولا تمنع التثبت، ولا توجب إعطاء كل طالب كل ما طلب. يجوز أن تعتذر، وأن تتحقق، وأن توجه المساعدة إلى مستحقها، وأن تمتنع عن تمويل معصية أو استغلال.

لكن اكتشاف الخطأ لا يحتاج إلى إذلال المخطئ.

والحذر لا يبيح الاحتقار.

والامتناع عن المال لا يستلزم البذاءة.

فقد تقول: لا، وتبقى رحيماً. وقد تكشف كذباً، ثم تعالجه بعدل من غير تشفٍ. وقد تمنع السائل من عادة تضر به، لكنك تمنعه بوصفك حريصاً على مصلحته، لا بوصفك مستمتعاً بإظهار سلطتك عليه.

إن الآية لا تلغي التمييز بين المستحق وغيره؛ إنها تلغي القسوة بوصفها لغةً للتعامل مع الضعف.

أدب الاعتذار

من أجمل ما يقدمه القرآن في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾.

حتى حين لا يملك الإنسان ما يعطيه، يبقى في يده «القول الميسور»: الكلمة اللينة التي تخفف صعوبة الرفض، وتبقى للسائل كرامته، وربما تفتح له باباً آخر.

ليس الاعتذار الصادق قليلاً. أن تنظر إلى السائل، وتسمعه، وتبين له بلطف أنك عاجز، وتدله إن استطعت على من يعينه؛ كل ذلك إحسان، وإن لم يخرج من يدك مال.

وبعض الناس يعجزون عن العطاء، فيختارون القسوة ليتخلصوا من شعور العجز. يهاجمون المحتاج كأن حاجته اتهام لهم، ويرفعون أصواتهم ليمنعوا أنفسهم من الإحساس بالتقصير. لكن الآية تعلمنا أن نواجه عجزنا بأدب، لا أن نحوله إلى أذى يصيب غيرنا.

يمكنك أن تقول: لا أستطيع، دون أن تقول للسائل بلسان الحال: لا تستحق.

حين تتحول الصدقة إلى محكمة

قد يجعل المعطي نفسه قاضيًا على حياة المحتاج كلها: أين أنفقت مالك؟ ولماذا تزوجت؟ ولماذا أنجبت؟ ولماذا لم تعمل؟ وكيف وصلت إلى هذا الحال؟ وبعض الأسئلة قد تكون لازمةً للتحقق وتنظيم المساعدة، لكن الفرق كبير بين السؤال المهني المحترم والاستجواب الذي يراد به كسر الإنسان.

ليس من حقنا أن نطلب من المحتاج أن يعرض جراحه كاملةً كي نقتنع بأنه يستحق لقمة. ولا أن نحوله إلى متهم حتى تثبت براءة فقره.

قد يكون مسؤولاً عن بعض ما وصل إليه، وقد يكون ضحية ظروفه، وغالبًا تتداخل الأسباب. لكن حاجته الراهنة تظل حقيقةً تحتاج إلى معالجة حكيمة. وإذا أردنا مساعدته على تغيير أسباب فقره، فذلك يكون بالتأهيل والنصح والتمكين، لا بالإذلال.

الصدقة التي تجعل المحتاج يقف في محكمة قد تسد جوعه يومًا، لكنها تورثه خوفًا من طلب النجدة حين يحتاجها مرة أخرى.

السائل الذي لا يسأل بلسانه

ليس كل محتاج قادرًا على السؤال. قد يمنعه التعفف، أو الخجل، أو كرامة جُرحت من تجربة سابقة. وقد وصف القرآن قومًا بقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَافًا﴾.

وهنا ترتفع المسؤولية من حسن استقبال السائل إلى حسن البحث عن المتعفف. فبعض الحاجات لا تطرق الأبواب، بل تختبئ خلف ثوب نظيف، وصمت طويل، وتعلل متكرر بعدم الرغبة.

قد يقول الإنسان: لا أحتاج، لأنه يخشى المنة.

وقد يعتذر عن حضور مناسبة، لأنه لا يملك ما يليق بها.

وقد يتوقف عن الدراسة، ويقدم أسبابًا أخرى تخفي عجزه عن النفقة.

وقد يقلل طعامه ثم يصف ذلك بأنه عادة.

والرحمة البصيرة لا تنتظر دائمًا تصريح المحتاج، بل تلاحظ دون تجسس، وتعطي دون فضح، وتصون وجهه كأنها لم تر شيئًا.

إن أكرم العطاء ما وصل قبل أن يضطر الإنسان إلى كسر صمته.

السؤال في زمن العرض العام

في عصر الصور والمنصات قد يُضطر المحتاج إلى كشف قصته أمام جمهور واسع كي يحصل على المعونة. تُنشر ملامحه، وتُروى تفاصيل مرضه وفقره، وتتحول لحظة ضعفه إلى محتوى يتداوله الناس.

وقد تدعو الضرورة أحيانًا إلى إعلان الحاجة، لكن الواجب أن يُحفظ من خصوصية الإنسان وكرامته أكثر ما يمكن. فليس كل ما يثير التفاعل جائزًا عرضه، وليس نجاح حملة التبرع مبررًا لأن يبقى المحتاج مكشوفًا أمام الناس إلى الأبد.

ينبغي سؤال صاحب الحاجة عن رضاه، وإخفاء ما لا يلزم إظهاره، والتثبت من القصة، وحماية أمواله، وعدم استعمال صور الأطفال وأوجاع المرضى مادةً لاستعراض المؤسسة أو المحسن.

فالإنسان لا يفقد حقه في الستر لأنه افتقر.

والحاجة لا تجعل حياته ملكًا للجمهور.

السائل امتحانُ صاحب النعمة

يظن الإنسان أن السائل هو الممتحن: هل سيحصل على ما يريد أم لا؟ لكن السورة تقلب زاوية النظر؛ السائل نفسه امتحان لمن سئل.

هل يرى في ماله ملكًا مطلقًا أم نعمةً مستخلفًا فيها؟

هل يتذكر فقره الأصلي إلى الله؟

هل يشكره عمليًا؟

هل يحفظ كرامة من لا يملك؟

هل يسيطر على ضيقه حين تتكرر الطلبات؟

قد يخرج السائل من الباب بلا شيء، لكن صاحب الباب يكون قد خسر امتحانًا كبيرًا بسبب كلمة. وقد يعتذر عن العطاء، لكنه ينجح في الامتحان لأنه اعتذر بصدق ولطف وبذل ما يستطيع من دلالة.

نحن لا نعرف دائماً مَنْ جاء ليأخذ ممن؛ فقد يأتي المحتاج طلباً للمال، ويترك للمعطي فرصة عظيمة ليظهر قلبه وماله.

من نهر السائل إلى نهر الأفكار

يتجاوز أدب السؤال أبواب المال والعلم إلى المجال الفكري والاجتماعي. فالمجتمع الذي ينهر أسئلته يحكم على نفسه بالجمود. حين يُقابل السؤال الجاد بالتخوين، أو تُواجه المراجعة بالسخرية، أو تُعد الحيرة جريمةً، يتعلم الناس إخفاء ما يدور في عقولهم، ولا يعني صمتهم أنهم اقتنعوا.

الأسئلة المكبوتة لا تموت؛ قد تنمو بعيداً عن نور العلم.

والعالم الواثق لا يخاف السؤال؛ يميّز بين من يسأل طلباً للحق ومن يجادل عبثاً، لكنه لا يجعل سوء بعض السائلين ذريعةً لإغلاق أبواب المعرفة أمام الجميع.

لقد جاء الوحي جواباً عن أعظم أسئلة الإنسان: من خلقه؟ ولماذا يعيش؟ وإلى أين يمضي؟ فكيف يصح أن يتحول حملة الوحي إلى حرّاس يمنعون السؤال؟ إن حماية مقام الدين لا تكون بكسر عقل السائل، بل بإجابته بعلم وعدل، والاعتراف بحدود المعرفة حيث لا نعلم.

الرحمة في اللسان

جمعت الآيتان بين قهر اليتيم ونهر السائل؛ الأول عدوان القوة، والثاني عدوان الكلمة. وكأن السورة تحرس الضعيف من اليد واللسان معاً.

فقد لا تضرب إنساناً قط، لكنك تترك في نفوس الناس كدمات لا تراها.

وقد لا تسلب مال أحد، لكنك تسلبه ثقته بنفسه.

وقد لا تغلق الباب بيدك، لكنك تغلقه بنبرة تجعله لا يطرقه مرة أخرى.

اللسان جزء من أخلاق العطاء. بل قد يكون الكلمة نفسها عطاءً حين لا يملك الإنسان غيرها. وليست الكلمة الطيبة بديلاً دائماً عن الحقوق المادية؛ فلا يكفي أن نبتسم للجائع ونتركه بلا طعام مع القدرة. لكن المال نفسه يحتاج إلى كلمة تصونه من التحول إلى منة.

الخير الكامل أن يصل الحق إلى اليد دون أن تنكسر النفس في طريقه.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ): من الصمت إلى الشهادة

بعد نهيبين: (فَلَا تَقْهَرْ)، و(فَلَا تَنْهَرْ)، جاء أمر: (فَحَدِّثْ).

امنع يدك عن القهر، ولسانك عن النهر، ثم أطلق اللسان في موضعه الجميل: الحديث بنعمة الله.

إنه انتقال بديع؛ فاللسان الذي مُنع من جرح السائل أمر أن يكون شاهداً على الفضل. وكأن السورة تعيد توجيه طاقة الكلام: لا تستعملها في إذلال المحتاج، بل استعملها في الدلالة على المنعم.

والنعمة هنا مفردة أضيفت إلى الرب: (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)، فتشمل ما سبق من الإيواء والهداية والإغناء، وفي مقدمتها نعمة النبوة والقرآن. فليبلغ النبي ﷺ

رسالة ربه، وليظهر ما أكرمه به من الوحي والهداية، وليثن عليه بما هو أهله.

والأمر بالتحديث لا يعني المباهاة؛ فالآية لم تقل: تحدث بما صنعت، بل: (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ). إن مركز الحديث ليس ذات الإنسان، بل فضل الله.

الفرق بين التحديث والتفاخر

قد تتشابه العبارات في ظاهرها، لكن القلوب التي تصدر عنها مختلفة. يقول الإنسان: أنعم الله عليّ، وقد يريد بذلك شكر الله وتقوية رجاء الناس. ويقول العبارة نفسها، لكنه يريد أن يلفت الأنظار إلى تفوقه وثروته ومكانته. فالفارق لا يكون في الكلمات وحدها، بل في القصد والسياق والأثر.

التحديث بالنعمة ينسب الفضل إلى الله.

والتفاخر ينسب المجد إلى الذات.

التحديث يبعث الرجاء في قلب السامع.

والتفاخر يوقظ فيه الإحساس بالنقص.

التحديث يذكر العطاء مع التواضع والمسؤولية.

والتفاخر يعرض النعمة مجردةً من حقها.

التحديث لا يحتاج إلى كشف ما يحرك الحسد أو يؤذي المحروم.

والتفاخر يتعمد العرض والمقارنة.

ومن الحكمة ألا يتحدث الإنسان بكل نعمة أمام كل أحد. فقد تكون المصلحة في الكتمان اتقاءً للحسد، أو حفظاً للإخلاص، أو مراعاةً لقلب مبتلى. وليس الأمر بالتحديث أمرًا بإذاعة تفاصيل الحياة كلها، وإنما هو دعوة إلى إظهار فضل الله والثناء عليه، وإعلان نعمة الهداية والوحي، واستعمال النعم فيما يدل على المنعم.

فقد يكون استعمال النعمة في الطاعة أبلغ حديث عنها من الكلام.

حين يجرح الحديث بالنعمة

قد يتحدث الإنسان عن سعة رزقه أمام فقير لا يجد طعامه، أو عن أبنائه أمام من فقد ولده، أو عن صحته أمام مريض يتأكله الألم، ثم يقول: أنا أمتثل قوله تعالى: ﴿فَحَدِّثْ﴾.

لكن الامتثال لا ينفصل عن الرحمة. والآية نفسها جاءت بعد النهي عن قهر اليتيم ونهر السائل؛ فكيف يُفهم التحديث فهمًا يهدم حساسية السياق تجاه المجروح؟

إن شكر النعمة لا يحتاج إلى أن نضعها في موضع يؤذي الآخرين. ويمكن للإنسان أن يحمد الله من غير استعراض، وأن يذكر فضله في سياق يحيي الرجاء، لا في سياق المقارنة التي تهين.

وقد يكون الصمت عن بعض التفاصيل أبلغ شكرًا إذا كان في نشرها أذى. فالمقصود أن يكون لسانك عبدًا للنعمة، لا أن تصبح النعمة مادةً لإشباع رغبة الظهور.

أعظم النعمة: أن تعرف المنعم

قالت السورة: (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)، فربطت العطية بالرب، حتى لا يستغرق الإنسان في الشيء وينسى من أعطاه.

فالنعمة التي تقربك من الله نعمتان: نعمة الشيء، ونعمة المعرفة به.

أما إذا حجبك عن الله فقد يبقى ظاهرها عطاءً، لكن قلبك خسر معناها. المال الذي يصنع الكبر، والعلم الذي يولد الاستعلاء، والمكانة التي تفسد الضمير؛ كلها نعم لم يؤد أصحابها حقها.

ولذلك كان النبي ﷺ، وهو أكثر الخلق عطاءً من ربه، أكثرهم عبوديةً وشكرًا. لم تجعله النعمة يشعر بالاستغناء، بل زادت افتقارًا. كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فلما سُئل قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟».

الشكر ليس أن تعد النعم وأنت مستريح فحسب، بل أن تضعها في الطريق الذي يحبه الله.

شكر العلم تعليمه والعمل به.

وشكر المال إنفاقه من غير من.

وشكر القوة حماية الضعيف.

وشكر المكانة نصرته من لا صوت له.

وشكر القلم أن يكون أمينًا مع الحقيقة.

وشكر النجاة ألا تنسى من لا يزالون في موضع الخطر.

التحديث بالنعمة مقاومة للنسيان

للإنسان ميل إلى تذكر ما صنعه، ونسيان ما صنعه له. يرى اجتهاده ولا يرى التوفيق، ويذكر سهره ولا يذكر الصحة التي أعانته، ويتحدث عن قراره ولا يتحدث عن الظروف التي هيأها الله.

من هنا يصبح التحديث بالنعمة تدريباً للذاكرة على العدل. تقول: وفقني الله، لا لإلغاء جهدك، بل لمنع الجهد من التحول إلى صنم. وتقول: نجاني الله، وإن كان للنجاة سبب بشري، لأنك تعلم أن السبب نفسه لم يكن مستقلاً عن تقديره.

والحديث المتكرر عن فضل الله يعيد ترتيب قصة الحياة؛ فلا تعود سيرة بطل صنع نفسه من العدم، بل سيرة عبد سعى بما أُعطي، وساق الله إليه من اللطف ما لم يكن قادراً على خلقه.

وهذا الوعي يجعل النجاح أكثر تواضعاً، والفشل أقل تدميراً. فمن علم أن النتائج ليست من صنعه وحده لا يتأله عند النجاح، ولا يحتقر ذاته كلياً عند تعثر نتيجة بذل لها ما يستطيع.

النعمة التي تتحدث بنفسها

ليست كل صور التحديث كلاماً. قد تتحدث النعمة عن ربها من خلال الطريقة التي تستعمل بها.

إذا أغناك الله ثم وجد الفقير في مالك حقه، فقد تحدث المال.

وإذا علّمك ثم وجد السائل عندك تواضع العالم، فقد تحدث العلم.

وإذا آواك ثم صار بيتك أمناً لمن يحتاج، فقد تحدث المأوى.

وإذا شفاك الألم من القسوة، فقد تحدث الجرح.

وإذا منحك منصباً فصار الضعيف أكثر أمناً بسببه، فقد تحدثت المكانة.

وربما كان هذا أبلغ من خطب الحمد؛ لأن الناس يحتاجون أن يروا أثر النعمة في أخلاق صاحبها. أما من يكثر الثناء على الله بلسانه ثم يبخل بما أعطاه، فقد فصل الكلام عن الشكر.

النعمة التي لا يجد الناس شيئاً من خيرها قد تبقى محبوسةً داخل صاحبها، وإن أكثر الحديث عنها.

بنية الختام الثلاثية

ختمت السورة بثلاثة توجيهات متتابعة:

(فَلَا تَقْهَرْ).

(فَلَا تَنْهَرْ).

(فَحَدِّثْ).

نهيان عن الأذى، وأمرٌ بإظهار الفضل.

تطهير لليد من القهر.

وتطهير للسان من الغلظة.

ثم ملء اللسان بالحمد.

كأن الأخلاق لا تكتمل بفعل الخير وحده، بل تبدأ بالكف عن الشر. قد يتحدث الإنسان بالنعمة، لكن لسانه ينهر المحتاج؛ فينقض آخر السورة ما قبل آخرها. وقد يتصدق، لكنه يقهر اليتيم؛ فيخرج المال من يده ولا يخرج الكبر من قلبه. إن القرآن يبني الإنسان من جهتين: يمنع من الأذى، ثم يدفعه إلى الإحسان. فمجرد الامتناع عن الظلم ليس الغاية الكاملة، كما أن فعل الخير مع استمرار الإهانة ليس خيرًا كاملاً.

من ضحى السماء إلى نور اللسان

بدأت السورة بالضحى، وانتهت بالحديث بالنعمة. وبين البداية والنهاية مسار نور:

في أولها ضوء يملأ الأفق.

وفي وسطها وعد يملأ القلب.

وفي آخرها حمد يملأ اللسان ورحمة تمتد إلى الناس.

وكأن النور الذي جاء من خارج الإنسان دخل قلبه بالطمأنينة، ثم خرج منه خلقًا وكلمةً. لم يبق الضحى مشهدًا في السماء، بل صار طريقةً في معاملة الضعيف.

فما قيمة أن ترى الضوء إذا بقي الناس في ظل قسوتك؟

وما معنى أن تطمئن إلى عناية الله إذا لم يطمئن إليك من وضعهم الله في طريقك؟

وما صدق الحديث بالنعمة إذا لم يجد السائل في صوتك بعضًا من رحمتها؟

إن سورة الضحى لا تنقل الإنسان من الحزن إلى الفرح فقط، بل من الحزن إلى المسؤولية. فالفرح الذي ينتهي عند صاحبه شعور، أما الفرح الذي يصنع للآخرين مأوى فهو شكر.

السورة في حركة واحدة

إذا نظرنا إلى السورة كاملةً وجدناها تتحرك في نظام بالغ الإحكام:

المعنى	الآيات	الحركة
تعاقب الضوء والسكون داخل تدبير واحد	(وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ)	مشهد الكون
تأخر العلامة لا يعني انقطاع العناية	(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ)	طمأنينة الحاضر
الطريق يتجه إلى الخير والعطاء والرضا	(وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ... وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ...)	وعد المستقبل
الذاكرة دليل على سابق الرعاية	(يَتِيمًا فَآوَى... ضَالًّا فَهْدَى... عَائِلًا فَأَغْنَى)	شواهد الماضي

المعنى	الآيات	الحركة
تحويل النعمة إلى رحمة وشكر	(فَلَا تَقْهَرْ... فَلَا تَنْهَرْ...) (فَحَدِّثْ)	الواجب الأخلاقي

إنها لا تضع المعاني بعضها إلى جوار بعض فحسب؛ بل تجعل كل مقطع يلد ما بعده. لأن الله لم يودعك، فثق بالمستقبل. ولأن المستقبل موعود، فتذكر شواهد الماضي. ولأن الماضي امتلأ بالعناية، فاجعل أثرها حاضرًا في أخلاقك.

وهذا هو التدين الذي تصنعه السورة: يقين في القلب، وذاكرة عادلة، ورحمة في اليد، ورفق في اللسان.

آخر كلمة في السورة

تنتهي السورة بالفعل: (فَحَدِّثْ).

لا تنتهي بالحزن الذي نزلت لمواساته، ولا بالشائعة التي أحاطت بفتور الوحي، ولا بالليل الذي سجا. إنها تنتهي بصوتٍ يعود إلى الحياة حاملاً الاعتراف بالنعمة.

لقد أراد الخصوم للصمت أن يكون دليل نهاية، فإذا بالسورة تحوله إلى بداية حديث لا ينقطع. وما زالت نعمة رب محمد ﷺ يُحَدِّثُ بها في الأرض، وما زال القرآن الذي قالوا إن نزوله انقطع يُتلى، وما زال اسم النبي ﷺ يُذكر في الأذان والصلاة والقلوب.

اختفى صوت الشامتين، وبقي الحديث بالنعمة.

وهذه وحدها صورة مهيبة لصدق الوعد.

لم يكن صمت السماء وداعًا؛ كان بين يدي سورة ستعلم المحزونين إلى آخر الزمان كيف يعبرون الليل دون أن يتهموا الشمس بالموت.

وكانت آخر وصاياها أن يتحدث النبي ﷺ بنعمة ربه؛ فتخرج المواساة من قلبه رسالة، ويخرج النور من روحه رحمة، ويصبح الضحى الذي أشرق عليه في أول السورة ضياءً ممتدًا في حياة الناس.

وبعد هذا الفصل لا يبقى إلا أن نجمع خيوط الرحلة في خاتمة الكتاب: كيف بدأت السورة بوحشة قلب، ثم أعادت بناء الزمن والذاكرة والعلاقة بالنعمة، حتى صنعت من الإنسان الذي تلقى العناية مأوىً لغيره.

الخاتمة

من ضحى السماء إلى ضحى الروح

لم تكن سورة الضحى جواباً عن فتور الوحي فحسب، بل كانت بناءً كاملاً للقلب حين يضطرب تفسيره للأحداث. نزلت في لحظةٍ حاول فيها المشركون أن يجعلوا من سكون السماء دليلاً على انقطاع العناية، فجاءت السورة لا لترد على الشائعة وحدها، بل لتنتزع من أيدي الحزن والخصوم حقَّ تفسير الصمت.

بدأت السورة من بعيد؛ من الأفق: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

كان يمكن أن تبدأ بالجواب مباشرةً، لكنها بدأت بمشهدٍ يتكرر كل يوم؛ لأن القلب يحتاج أحياناً إلى أن يرى الحقيقة قبل أن يسمعها. أرثه ضحى ينتشر نوره، وليلاً يسكن في غشائه، ثم وضعته أمام سر تعاقبهما: اختلاف الحال لا يعني اختلاف المدبر، واحتجاب الشمس لا يعني موتها، وسكون العالم لا يعني توقف العناية.

فالليل ليس حادثاً خارج سلطان الله، بل آيةٌ من آياته، له وظيفته وموعد انقضائه. وكما أن الكون لا يصبح متروكاً حين يسجو الليل، لا يصبح العبد منسياً بمجرد أن آثار اللطف خفيت عن إدراكه.

ومن الأفق انتقلت السورة إلى القلب: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

وهنا سمّت الوجع وردّت عليه. نفت المفارقة، ونفت البغض، ثم أحضرت كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ في موضع المواساة؛ لتستدعي كل ما في الربوبية من تربية وتدبير وحفظ.

ليس الذي يخاطب محمداً ﷺ ربّ لحظته الراهنة وحدها، بل ربه منذ أن كان يتيمًا لا يملك من أمره شيئًا. والذي صنع بداياته لا يضيّع رسالته في منتصف الطريق.

هنا يتعلم القلب أن يفرّق بين ما وقع وما أوهمه الألم أن ما وقع يعنيه. قد يتأخر المطلوب؛ هذه واقعة. أما أن يكون التأخير إهمالًا، فذلك تفسير لا دليل عليه. قد يشتدّ البلاء؛ هذه حقيقة. أما أن يكون البلاء إعلانًا بأن الله أبغض عبده، فذلك حكم لا يملكه الشعور.

الألم يصف حالك، لكنه لا يملك أن يعرف لك ربك.

إعادة بناء الزمن

لا يكتفي الحزن بإيلام الحاضر؛ إنه يهاجم الأزمنة كلها. يعيد كتابة الماضي حتى لا يرى الإنسان فيه إلا الخسائر، ثم يصادر المستقبل ويملؤه بصور الألم نفسه. وهكذا يجد المحزون نفسه محاصرًا: ماضٍ يوجعه، وحاضر يثقله، ومستقبل يخيفه.

فجاءت سورة الضحى وأعادت بناء الزمن من جهاته الثلاث:

الحاضر: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ .

المستقبل: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۖ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

الماضي: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ...﴾.

طمأنت الحاضر، وفتحت المستقبل، واستنطقت الماضي.

وحين أحاطت القلب من أزمنته كلها، ضاقت منافذ الوحشة. فإن قال الحزن: لقد تركت، أجابه الحاضر: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾. وإن قال: لن يأتي خير، أجابه المستقبل: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾. وإن قال: ليس لك شاهد على العناية، أجابه الماضي: ﴿فَآوَىٰ... فَهَدَىٰ... فَأَغْنَىٰ﴾.

وهكذا لا يترك القرآن القلب في مواجهة وهمه بكلمة عابرة، بل يبني حوله حصناً من الحقيقة.

المستقبل ليس نسخةً من الألم

قال الله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

فحرر المستقبل من أسر اللحظة. إن الإنسان حين يتألم يتعامل مع الحاضر كأنه نبوءة: ما دام اليوم مؤلماً، فالغد صورة أخرى منه. لكن السورة ترفض أن تمنح اللحظة هذا السلطان. الذي يملك الغد هو الله، لا خوفك منه.

والآية في معناها الأصيل تفتح للنبي ﷺ خير الآخرة، حيث العطاء الكامل والمقام المحمود والرضوان، كما تتسع لما سيأتي من امتداد الرسالة وخير أواخر أمره في الدنيا. وبهذا تضع النهاية الحقيقية خارج حدود المشهد العابر.

فليست كل قصة عادلةً في فصلها الأول.

وليس كل بذر مطالبًا بأن يصير ثمرةً أمام عين زارعه.

وليس على الحق أن ينتصر في الموعد الذي حدده استعجالنا حتى يبقى حقًا.

ثمة آخرة تحفظ المعنى من عبث الدنيا؛ يومٌ تُستوفى فيه الحقوق، وتوزن فيه الأعمال، ولا تضيع فيه دمة صبر، ولا كلمة حق، ولا إحسان خفي.

إن الآخرة ليست مهرًا من إصلاح الأرض، بل هي التي تمنح الإنسان القدرة على إصلاحها دون أن يبيع ضميره حين تتأخر النتائج. يعمل لأنه مأمور بالعمل، ويقاوم الظلم لأنه ظلم، ثم لا يسمح لعجزه المؤقت عن تحقيق العدل كله أن يقنعه بأن العدل وهم.

العطاء الذي يبلغ مقام الرضا

ثم ارتفعت السورة من خير المستقبل إلى وعد العطاء: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

لم تسم الآية ما سيُعطى؛ لأن العطاء أوسع من أن يُحصر في شيء. امتد من الوحي والقرآن ونصرة الرسالة إلى ما أعده الله لنبيه ﷺ في الآخرة. لكنها سمّت غايته: ﴿فَتَرْضَىٰ﴾.

وهنا نكتشف أن أعظم العطاء ليس وصول النعمة إلى اليد وحدها، بل وصول السكينة إلى القلب. قد يملك الإنسان ما أراد، ثم يظل خائفًا مضطربًا، وقد تُفتح له الأبواب فلا يعرف كيف يسكن إلى ما وراءها. أما العطاء الكامل فيصحبه قلب قادر على تذوقه وشكره والرضا به.

غير أن الوعد خاص بالنبي ﷺ في أصله ومقامه، فلا يجوز لكل إنسان أن يحوله إلى ضمان دنيوي بتحقيق جميع رغباته. إنما يأخذ المؤمن منه معرفة بكرم الله، وثقة بحكمته، ويقيناً بأن ما ادخره لعباده المؤمنين في الآخرة خير وأبقى.

فالله قد لا يعيد كل مفقود بصورته، لكنه لا يضيع المأ صبر عليه عبده، ولا حاجة رفعها إليه، ولا رجاء صادقاً وضعه في بابه.

الذاكرة التي تشهد للعناية

بعد وعد المستقبل فتحت السورة سجل الماضي: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.

ثلاث حاجات أحاطت بالإنسان في أعماق مواضعه:

اليتم: افتقار إلى السند.

وعدم العلم بالوحي قبل نزوله: افتقار إلى النور الذي لا يُنال إلا بتعليم الله.

والعيلة: افتقار إلى الكفاية.

ثم ثلاث إجابات من الرحمة:

فآوى.

فهدى.

فأغنى.

كأن السورة تقول: لم تكن العناية فكرةً مجردةً في حياتك، بل كانت بيتًا حين فقدت السند، ونورًا حين لم تكن تعلم الكتاب، وكفايةً حين عرفت الحاجة.

ولم تقل الآية إن اليتيم لم يقع، بل قالت: وقع الإيواء. ولم تتكر العيلة، بل أظهرت الإغناء. فالقرآن لا يمحو الفصول المؤلمة من السيرة حتى يثبت الرحمة؛ بل يكشف الرحمة وهي تعمل في داخلها.

وهذا أدق من المواساة التي تقول للمتألم: لا شيء يؤلم. فثمة أشياء تؤلم حقًا، وثمة خسائر لا تُردّ في الدنيا، لكن وجود الجرح لا يعني غياب اللطف، كما أن حضور اللطف لا يحوّل الظلم إلى عدل أو الفقد إلى وهم.

إن السورة تمنح الإنسان ذاكرةً عادلة: تذكر من جرحك، إن كان في التذكر حفظ للحق، لكن لا تنسَ من حملك. اعرف قسوة الطريق، لكن لا تجعلها تحجب عنك ألطاف الله التي أبقتك قادرًا على السير.

ولا تمنح الذين آذوك حق كتابة قصتك كلها.

من الألم إلى البصيرة

كان من الممكن أن تنتهي السورة بعد وعد العطاء وتعداد النعم، فتكون قصيدةً كاملةً في المواساة. لكنها لم تفعل؛ لأن القرآن لا يريد أن يجعل الإنسان مستهلكًا للرحمة، بل حاملاً لها.

انتقلت السورة من الذاكرة إلى التكليف: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿٢﴾).

لقد كنت يتيماً، فلا تنسَ شعور من فقد السند.

وعرفت الحاجة، فلا تهن من اضطر إلى السؤال.

وتلقيت الهداية، فلا تتكبر بعلمك على من جاءك يبحث عن الطريق.

هنا تتحول السيرة الشخصية إلى مسؤولية أخلاقية. فالجرح الذي دخلته العناية الإلهية ينبغي أن يخرج من الطرف الآخر رحمةً، لا رغبةً في تكرار القهر.

الألم وحده لا يجعل الإنسان نقيًا. قد يصنع منه رحيماً، وقد يصنع منه قاسياً؛ بحسب المعنى الذي يبينه حوله. فمن قرأ ألمه بوصفه مبرراً للانتقام قال: لقد عانيت، فليعان غيري. ومن قرأه في ضوء الإيواء قال: لقد عرفت الوحشة، فلن أترك أحداً فيها ما استطعت.

والشفاء الحق لا يعني أن يستطيع المظلوم فعل ما فعله به الظالم؛ بل أن يمتلك القوة ثم يرفض إعادة إنتاج الظلم.

كرامة الضعيف قبل حاجته

قال الله: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾، ولم يبدأ بالإطعام؛ لأن اليتيم قد يُطعم ويُقهر في اللحظة نفسها. قد يُفتح له البيت، ثم يُغلق دونه القلب. وقد تُدفع إليه النفقة، ثم يُطالب أن يدفع ثمنها من كرامته.

فحمت الآية روحه قبل أن تتحدث عن حاجاته.

وقال: ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾، لأن السائل قد يحتمل أن يعود بلا مال، لكنه قد لا ينسى أنه عاد مكسوراً. ليس كل إنسان قادراً على العطاء، لكن كل إنسان قادر على ترك الإهانة.

وهذه من رهافة الأخلاق القرآنية: إنها لا تنظر إلى ما وصل إلى يد المحتاج فقط، بل إلى ما بقي في نفسه بعد اللقاء.

فالصدقة التي تجرح ليست كاملة.

والعلم الذي يذل السائل يفقد شيئاً من بركته.

والإيواء الذي يذكر الضعيف بأنه عبء ليس مأوى كاملاً.

والقيادة التي تطلب من الناس الإخلاص، ثم لا تحفظ كرامتهم، لم تؤد أمانة القوة.

إن معيار الأخلاق لا يظهر في علاقتنا بمن يستطيعون رد الأذى، بل بمن لا يملكون ذلك. اليتيم، والسائل، والفقير، والتابع، والعامل الضعيف؛ هؤلاء جميعاً يختبرون حقيقة التقوى في المجتمع. فقد يتدين الناس في المساجد، لكن صدق تدينهم يظهر عند توزيع الحقوق والكرامة.

لا تجعل الصبر حجةً للظالم

لا تطلب السورة من الضعيف أن يرضى بالقهر، بل تخاطب القوي: (فَلَا تَقْهَرْ). ولا تلوم السائل على حساسيته، بل تخاطب من يملك القدرة على زجره: (فَلَا تَنْهَرْ).

وهذا ترتيب أخلاقي ينبغي ألا يضيع. فالتدين الزائف يكثر من وعظ المظلوم بالصبر، ويقلل من مطالبة الظالم بالعدل. يفتش في قلب الجريح عن الرضا، ولا يفتش في يد القوي عن الأمانة.

أما القرآن فإتجه إلى مصدر الأذى: لا تقهر، لا تنهر.

الصبر عبادة عظيمة، لكنه ليس صك براءة للقاهر. والرضا بالله لا يعني الرضا بالظلم، والتوكل لا يعني ترك الأسباب، والعفو فضيلة لا يجوز أن يتحول إلى نظام يحمي المعتدين من المحاسبة.

إن حماية الضعيف ليست تفضلاً من القوي، بل حق جعله الله في عنقه.

حين نتحدث النعمة

ثم جاءت خاتمة السورة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

بعد أن نهت اللسان عن نهر السائل، أمرته أن يتحرك في اتجاه آخر: الحديث بنعمة الله. لا تملأ فمك بإهانة المحتاج؛ املأه بالحمد. ولا تجعل قوتك دليلاً على عظمتك؛ اجعلها شاهداً على فضل ربك.

والتحديث بالنعمة ليس استعراضاً لما نملك، بل ردّ النعمة إلى مصدرها، وإظهار أثرها في العبادة والعمل. إن الفارق بين الشكر والتفاخر يكمن في المركز الذي يدور حوله الكلام:

المتفاخر يقول في باطنه: انظروا إليّ.

والشاكر يقول: انظروا إلى فضل ربي.

لكن أبلغ الحديث بالنعمة قد لا يكون كلاماً. يتحدث المال حين يطعم جائعاً. ويتحدث العلم حين يجيب سائلاً برفق. وتحدث المكانة حين تحمي من لا

مكانة له. ويتحدث البيت حين يصير مأوى. ويتحدث الجرح حين يجعل صاحبه أكثر رحمةً بالمجروحين.

إن النعمة التي لا تظهر في أخلاق صاحبها لم تقل كلمتها بعد.

الخريطة الكاملة للسورة

يمكن جمع الحركة الداخلية للسورة في أربع كلمات:

كون، وقلب، وذاكرة، وخلق.

بدأت بالكون؛ لتضع تغير الأحوال داخل نظام العناية.

ثم دخلت إلى القلب؛ فنفت عنه وهم الهجر والقلى.

ثم حررت المستقبل من الخوف، واستدعت من الماضي شواهد الرعاية.

ثم أخرجت القلب من عزلته، وحوّلت طمأنينته إلى رحمةٍ للضعفاء.

ويمكن رؤية تناظرها على هذا النحو:

الأثر المطلوب في الحياة	عناية الله بنبيه ﷺ
(الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)	(يَتِيمًا فَلَا وَى)
يُرفق بالسائل ويُدل على الطريق	(ضَالًّا فَهْدَى)
لا يُذل المحتاج ويُشكر النعمة	(عَائِلًا فَأَغْنَى)

الأثر المطلوب في الحياة	عناية الله بنبيه ﷺ
(يَنْعِمَ رَبُّكَ فَحَدِّثْ)	(يُعْطِيكَ رَبُّكَ)

العناية تنزل من الله إلى العبد، ثم ينبغي أن يمتد أثرها من العبد إلى الناس. وما بين النزول والامتداد يتكون الشكر.

فالشكر ليس كلمات تصعد وحدها، بل رحمة تنتشر أيضاً.

ماذا تقول سورة الضحى للمحزون؟

لا تقول له إن كل ليلة ستقصر بحسب استعجاله.

ولا تقول إن ما فقده سيعود حتماً بالصورة نفسها.

ولا تعده بأن الناس سينصفونه جميعاً في الدنيا.

ولا تطالبه بأن ينكر ألمه ويتظاهر بالقوة.

إنها تقول له شيئاً أصدق وأعمق:

لا تجعل الليل يعرف لك ربك.

ولا تجعل لحظة الصمت تمحو تاريخ العناية.

ولا تجعل تأخر الجواب يتحول في داخلك إلى تهمة للهجر.

ولا تحكم على القصة قبل أن تبلغ خاتمتها عند الله.

تذكر أنك عبرت أيامًا ظننت أنك لن تعبرها. وتذكر أطفافًا جاءتك قبل أن تحسن طلبها. ثم لا تجعل نجاتك قصةً مغلقة عليك؛ انظر حولك، فثمة يتيم يحتاج ألا يُقهر، وسائل يحتاج ألا يُنهر، ومحروم قد تصير نعمتك في حياته ضحىً صغيرًا.

إنها لا تقول للمحزون فقط: سئوأسى.

بل تقول له: ستتعلم من المواساة كيف تواسى.

السورة التي ردت على الصمت بالكلام

كان سبب الوحشة فتور الوحي، وكان آخر أمر في السورة: (فَحَدِّثْ).

بدأ المشهد بصمت، وانتهى بحديث.

بدأ بشائعة تزعم أن الرسالة انقطعت، وانتهى بأمر يجعل ذكر النعمة ممتدًا. ومضى النبي ﷺ يحدث بوحي ربه، ثم حملت الأمة القرآن من بعده، حتى صارت سورة الضحى نفسها إحدى صور العطاء الذي لا يزال يتنزل أثره على القلوب.

أما الذين قالوا إن ربه ودعه، فقد انطفأت أصواتهم.

وبقي اسم محمد ﷺ يتردد في المآذن.

وبقي الكتاب الذي ظنوا أنه انقطع يُتلى في الليل والضحى.

وبقيت الآية التي نزلت تمسح وحشة قلبه تمسح وحشة ملايين القلوب.

وهذا من تمام جواب السورة: لم ترد على الشامتين بحجةٍ لحظية فقط، بل ردّ عليهم التاريخ كله.

حين يسجو ليلك

ستأتي على الإنسان أوقات لا يستطيع فيها أن يرى الضحى. وقد يقرأ هذه المعاني فلا يزول ألمه، لأن بعض الأوجاع لا تحلها عبارة واحدة، ولا ينتهي أثرها في يوم. وليس في بقاء الحزن ما ينقض الإيمان؛ فقد واسى الله نبيه ﷺ، ولم يلمه على أن قلبه وجد من فتور الوحي وحشة.

لكن السورة تضع في يد المحزون خيطاً لا يتركه يضيع تماماً: لست مطالباً بأن ترى الشمس الآن حتى توقن أنها لم تمت.

قد يسجو ليلك، ويطول سكونه، وتتشابه عليك الجهات، لكن ربك لا يضل ولا ينسى. وما خفي عنك من حكمته ليس غائباً عن علمه. وما عجزت عن حمله بعقلك تستطيع أن تفوضه إلى رحمته، وأنت تأخذ بما تستطيع من أسباب النجاة والعمل.

لا تسمّ الليل نهاراً؛ اعترف بظلمته.

لكن لا تسمّه الأبد.

الضحى الذي نصنعه للآخرين

ربما لا تستطيع أن ترفع عن إنسان ليله كله، لكنك تستطيع ألا تزيد ظلمة.

قد لا تملك حل فقره، لكنك تحفظ كرامته.

وقد لا تستطيع إعادة ما فقدته، لكنك تجلس إلى جواره دون أن تستعجل حزنه.

وقد لا تعرف جواب سؤاله، لكنك لا تسخر من حيرته.

وقد لا تملك له بيتاً، لكنك تمنحه كلمةً يشعر عندها أنه ليس وحده.

ولعل هذا هو الأثر الأخلاقي الأجمل للسورة: أن الضحى ليس شيئاً ننتظره لأنفسنا فقط؛ قد نصير نحن شيئاً من ضحى الله في حياة الآخرين. لا بمعنى أننا مصدر الرحمة، بل أننا عباد سخرنا الله لإيصال أثر منها.

كما أوى الله نبيه بأيدي بشرية، قد يجعل يدك مأوى للإنسان.

وكما ساق إليه أسباب الكفاية، قد يجعل مالك أو علمك أو موقفك سبباً في كفاية محتاج.

وأنت حين تفعل ذلك لا تمنّ على أحد؛ فأنت نفسك نعمةً مسوقة، وسببٌ مؤقت، وعبدٌ أكرمه الله بأن جعل الخير يمر من خلاله.

الكلمة الأخيرة

سورة الضحى ليست سورة الضوء الذي يطرد الليل من الخارج فقط، بل سورة اليقين الذي يمنع الليل من احتلال الداخل.

إنها تقول إن العناية قد تسكن حتى لا تسمع حركتها، لكنها لا تنقطع. وإن الله قد يخفي عن عبده بعض التدبير، لكنه لا يخرج من علمه. وإن الماضي، حين يُقرأ بعدل، يمتلئ بشواهد الرحمة. وإن المستقبل ليس أرضاً خالصة للخوف، بل فيه وعد الله والآخرة. وإن النعمة لا تبلغ كمال شكرها حتى تتحول إلى رحمة.

لقد بدأت السورة بقسم: ﴿وَالضُّحَى﴾.

وانتهت بتكليف: ﴿فَحَدِّثْ﴾.

وبينهما تعلم القلب كيف ينجو من سوء الظن، وكيف يستعيد ذاكرته، وكيف ينتظر وعد ربه، وكيف يخرج من ألمه دون أن يحمل الألم سكيناً يؤذي بها الآخرين.

فالذي فهم سورة الضحى لا يسأل فقط: متى يأتي صباحي؟

بل يسأل كذلك: في حياة من أستطيع أن أكون سبباً لصباح؟

وهنا يكتمل المعنى:

ليس الضحى أن تشرق الشمس عليك وحدك، بل أن تتحول النعمة التي
أشرقت في قلبك إلى دفء لا يقهر يتيماً، وإلى صوت لا ينهر سائلاً، وإلى
حمد يدل على الله، وإلى رحمة يجد فيها المتعبون شيئاً من المأوى.

وحين يبلغ الإنسان هذا المقام، لا يعود الليل الذي مر به صفحة سوداء في
حياته؛ بل يصبح خلفية بعيدة يظهر عليها الضوء أكثر نقاءً.

لقد ظن أن الله أخرجه من الليل لينجو وحده، ثم أدرك أن العناية كانت تهيئه
ليحمل مصباحاً.

وذلك هو ضحى الروح.

جدول يجمع هندسة السورة كلها:

الواجب الأخلاقي	وعد المستقبل	طمأنينة الحاضر	نعمة الماضي
فلا تقهر	الآخرة خير	ما ودعك	أوى
فلا تنهر	يعطيك	وما قلى	هدى
فحدّث	فترضى	ربك معك	أغنى

فهرس الكتاب

بدايات تأملية: من هندسة الضوء إلى خاتمة النعمة — ٣

المقدمة: سورة نزلت لترتّب على قلب النبوة — ٧

هندسة السورة: من ضحى الكون إلى الرحمة بالإنسان — ١٢

الفصل الأول: ﴿وَالضُّحَى﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ — حين يقسم الله بتعاقب الأحوال — ١٣

- لماذا الضحى؟ — ١٤
- الليل حين يسجو — ١٥
- بلاغة التجاور بين الضوء والليل — ١٧
- حين يبدو الصمت جوابًا قاسيًا — ١٨
- ليس كل تأخير وداعًا — ١٩
- ضحى الرسالة — ٢١
- الليل ليس إقامة أبدية — ٢١
- التربية بين الإشراف والسكون — ٢٢
- بين ضحى الأفق وضحى القلب — ٢٣
- لا الليل دليل هجر، ولا احتجاب الضوء موت للشمس — ٢٤

الفصل الثاني: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ — حين يتأخر الوحي ولا ينقطع الود — ٢٥

- جواب عن ألم لم ينطق به النبي ﷺ — ٢٦
- سر التعبير بـ﴿رَبُّكَ﴾ — ٢٧
- ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾: نفي النهاية — ٢٨
- التعلق بصورة النعمة وحقيقة المنعم — ٢٩
- ﴿وَمَا قَلَى﴾: نفي البغض — ٣٠
- لماذا قال: ﴿وَمَا قَلَى﴾ ولم يقل: وما قلاك؟ — ٣١
- حين يفسر القلب الصمت — ٣٢
- بين الإبطاء والإهمال — ٣٤
- ربك في الطريق كله — ٣٤
- حين تؤذيك أحكام الآخرين — ٣٥
- المواساة التي لا تعزل صاحبها عن التكليف — ٣٧
- من النفي إلى الوعد — ٣٨

الفصل الثالث: (وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى) — حين يفتح الوحي نافذة في جدار اللحظة — ٣٩

- الآخرة والأولى — ٤٠ .
- الحزن يسجن الإنسان في اللحظة — ٤١ .
- اللام التي تؤكد الوعد — ٤٢ .
- خير لك، لا خير في مقياس الناس — ٤٣ .
- حين يكون المستقبل ملكاً للوعد — ٤٤ .
- لا تحكم على القصة من فصلها المؤلم — ٤٥ .
- الخيرية ليست دائماً راحة — ٤٦ .
- الآخرة: إنقاذ المعنى من عبث الدنيا — ٤٧ .
- خير الرسالة المتصاعد — ٤٨ .
- من ضيق «الآن» إلى سعة «ثم» — ٤٩ .
- لا تجعل الماضي سقفاً لعطاء الله — ٥٠ .
- الرجاء الذي يصنع العمل — ٥٠ .
- ما الذي يبقى حين يسقط كل شيء؟ — ٥١ .
- الخير الذي يفضي إلى العطاء — ٥٢ .
- أن يعطيه ربه حتى يرضى — ٥٣ .

الفصل الرابع: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) — عطاء لا تقف غايته عند اليد، بل تبلغ القلب — ٥٤

- وعد مشدود بالتوكيد — ٥٥ .
- (يُعْطِيكَ): فعل لم يُذكر مفعوله — ٥٦ .
- بين العطاء والتعويض — ٥٧ .
- (رَبُّكَ) مرة أخرى — ٥٧ .
- لماذا لم تقل الآية: فتفرح؟ — ٥٨ .
- الرضا ليس إلغاءً للطموح — ٥٩ .
- عطاء الرسالة — ٦٠ .
- عطاء النصر دون أن تفسد النفس — ٦١ .
- المقام المحمود — ٦٢ .
- هل تعني الآية أن كل ما نريده سيُعطى لنا؟ — ٦٣ .
- العطاء الذي لا يُرى — ٦٤ .
- الرضا عطاء آخر — ٦٥ .
- حين يصبح العطاء مسؤولية — ٦٦ .
- الوعد قبل استدعاء الماضي — ٦٧ .
- من انتظار العطاء إلى معرفة المُعْطَى — ٦٨ .
- (فَتَرْضَى): خاتمة الانتظار — ٦٨ .

ماضي العناية حجة على دوام الرعاية — ٧٠ .

الفصل الخامس: ﴿الْمَ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ — حين تصبح الذاكرة دليلاً على العناية — ٧١

- ﴿الْمَ يَجِدْكَ﴾: سؤال لا ينتظر جواباً — ٧٢ .
- ﴿يَجِدْكَ﴾: علم وإحاطة وتدبير — ٧٣ .
- ﴿يَتِيمًا فَآوَى﴾: الطفولة التي أحاطتها العناية — ٧٤ .
- الإيواء الذي تعددت وسائله — ٧٥ .
- لماذا بدأ باليتيم؟ — ٧٦ .
- اليتيم الذي يصنع البصيرة — ٧٧ .
- ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾: المعنى الذي ينبغي تحريره — ٧٨ .
- الهداية ليست فكرة، بل اصطفاء — ٧٩ .
- نعمة أن تعرف الطريق — ٧٩ .
- الهداية عطاء يتجدد — ٨٠ .
- ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾: حين تأتي الكفاية — ٨١ .
- ثلاثة أحوال وثلاثة أفعال — ٨٢ .
- أين مفعول الأفعال؟ — ٨٣ .
- الذاكرة بين الشكوى والشهادة — ٨٤ .
- حين تنسى النفس شواهد العناية — ٨٤ .
- لا تنسب نجائك إلى نفسك وحدها — ٨٥ .
- من الامتنان إلى التكليف — ٨٦ .
- الماضي ليس حجة للامتنان — ٨٧ .
- اليتيم والسائل: امتحان صدق الذاكرة — ٨٨ .
- العناية التي كانت تكتبك — ٨٨ .
- البرهان الذي تحمله حياتك — ٨٩ .
- من رعاية الله لك إلى رعايتك لحقوق عباده — ٩٠ .

الفصل السادس: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ — حين يتحول الألم الذي شفاه الله إلى رحمة — ٩٣

- الفاء التي تصل النعمة بالواجب — ٩٤ .
- لماذا بدأ النهي بالقهر؟ — ٩٤ .
- اليتيم لا يحتاج إلى شفقة تهيئه — ٩٥ .
- القهر يبدأ قبل الضرب — ٩٦ .
- لا تجعل قوتك الجديدة تنتقم من ضعفك القديم — ٩٧ .
- حين تمتحن القوة أخلاق الإنسان — ٩٨ .
- يُتم يتجاوز فقد الأب — ٩٩ .

- المجتمع الذي يقهر أيتامه — ١٠٠ .
- الدين الذي يظهر في طريقة المعاملة — ١٠١ .
- منّة العطاء قد تكون قهراً — ١٠٢ .
- حماية مال اليتيم — ١٠٣ .
- الرحمة لا تلغي التربية — ١٠٣ .
- الكلمة التي تصير بيتاً — ١٠٤ .
- حين تصبح القيادة إيواءً — ١٠٥ .
- لا تطالب المجروح بأن يصمت — ١٠٦ .
- الجرح الذي يصبح نافذة — ١٠٦ .
- من الإيواء إلى الحضارة — ١٠٧ .
- ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾: نهى يراقب الخلوات — ١٠٨ .
- من اليتيم إلى السائل — ١٠٩ .

الفصل السابع: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ — حين تختبر النعمة في صوت المحتاج — ١١٠

- ماذا يعني النهر؟ — ١١١ .
- السائل بين طالب المال وطالب العلم — ١١١ .
- السؤال لحظة انكشاف — ١١٣ .
- ليس كل سائل صادقاً، لكن كل إنسان له كرامة — ١١٣ .
- أدب الاعتذار — ١١٤ .
- حين تتحول الصدقة إلى محكمة — ١١٥ .
- 115 — السائل الذي لا يسأل بلسانه .
- السؤال في زمن العرض العام — ١١٦ .
- السائل امتحان صاحب النعمة — ١١٧ .
- من نهر السائل إلى نهر الأفكار — ١١٨ .
- الرحمة في اللسان — ١١٨ .
- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: من الصمت إلى الشهادة — ١١٩ .
- الفرق بين التحديث والتفاخر — ١٢٠ .
- حين يجرح الحديث بالنعمة — ١٢١ .
- أعظم النعمة: أن تعرف المُنعم — ١٢٢ .
- التحديث بالنعمة مقاومة للنسيان — ١٢٣ .
- النعمة التي تتحدث بنفسها — ١٢٣ .
- بنية الختام الثلاثية — ١٢٤ .
- من ضحى السماء إلى نور اللسان — ١٢٥ .
- السورة في حركة واحدة — ١٢٦ .
- آخر كلمة في السورة — ١٢٧ .
- حين يصير من ذاق الإيواء مأوىً لغيره — ١٢٨ .

الخاتمة: من ضحى السماء إلى ضحى الروح — ١٢٩

- إعادة بناء الزمن — ١٣٠
- المستقبل ليس نسخة من الألم — ١٣١
- العطاء الذي يبلغ مقام الرضا — ١٣٢
- الذاكرة التي تشهد للعناية — ١٣٣
- من الألم إلى البصيرة — ١٣٤
- كرامة الضعيف قبل حاجته — ١٣٥
- لا تجعل الصبر حجة للظالم — ١٣٦
- حين تتحدث النعمة — ١٣٧
- الخريطة الكاملة للسورة — ١٣٨
- عناية الله بنبيه ﷺ وأثرها المطلوب في الحياة — ١٣٨
- ماذا تقول سورة الضحى للمحزون؟ — ١٣٩
- السورة التي ردت على الصمت بالكلام — ١٤٠
- حين يسجو ليلك — ١٤١
- الضحى الذي نصنعه للآخرين — ١٤١
- الكلمة الأخيرة — ١٤٣
- جدول يجمع هندسة السورة كلها — ١٤٤